حُرمَة

علي المقري

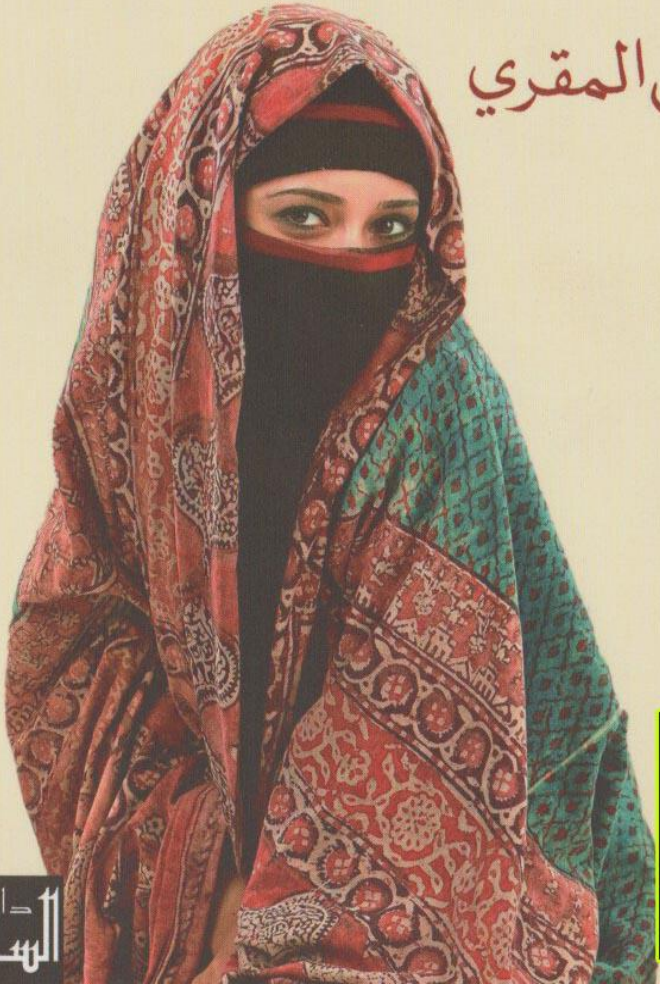

رواية

مكتبة
الفكر
الجديد

دار
الساقي

عبير الربيعة

مكتبة
الفكر
الجديد

حُرمة

صورة الغلاف: استديو جابريز/ المصور أمين الغابري
خطوط العناوين: علي عاصي

علي المقري

حُرمة

دار الساقي

© دار الساقي
جميع الحقوق محفوظة
الطبعة الأولى 2012

ISBN 978-1-85516-854-1

دار الساقي
بناية النور، شارع العويني، فردان، ص.ب: 5342/113، بيروت، لبنان
الرمز البريدي: 6114–2033
هاتف: 442 866-1-961+، فاكس: 443 866-1-961+

email: info@daralsaqi.com

يمكنكم شراء كتبنا عبر موقعنا الإلكتروني
www.daralsaqi.com

الوجه الأوّل من الشريط

لم أكن أتوقّع في يوم من الأيّام أنّ هناك شخصاً يمكنه رفض ليلة القدر. حدث هذا معي شخصياً، بالأصح حدث مع جارنا سُهيل. قلتُ له: ستندم، لكنّه لم يبال.

...

...

سَلوا قلبي غداة سلا وتابا
لعلّ على الجمال له عتابا

أهداني شريط هذه الأغنية قبل ست سنوات، و لم أخرجه من مخبئه في حقيبة المدرسة القديمة وأسمعه سوى الآن. كانت صورة أمّ كلثوم وفي أسفلها اسم الشريط **سلوا قلبي** كافيين لأن أرفض، يومها، إدخاله إلى المُسجِّلة لأسمعه، ولو مجرَّد سماع. قلت لأخته التي حملت إليّ الشريط: «لا يُمكن أن أسمع أغاني. سماعها حرام يغضب الله»؛ لكنّها أصرَّت على تركه لديَّ، خوفاً من زَعَل أخيها، إذا عَرف أنّني رفضت.

سلوا قلبي غداة سلا وتابا

ما هدفه من إهداء هذه الأغنية إليّ؟ ماذا تعني **تابا**؟ هل تاب فعلاً ليتّخذ موقفه ذاك من ليلة القدر؟ كيف لم أتبيّن ذلك منذ أن تسلّمت الشريط؟

...

...

ويُسألُ في الحوادث ذو صواب
فهل ترك الجمالُ له صوابا

قصده واضح، أراد أن يتغزّل بجمالي، من خلال أغنية السِت، كما سمّتها أخته، لكنّني لم أنتبه يومها، لأنّني لم أسمع الأغنية.

لا أتذكّر آخر مرّة رأيت فيها وجهي وجسدي في المرآة. أبدو فاتنة. من لها مثل نهديّ البارزين؟ جسدي ما زال شابّاً. يا لروعة وسطي وشفتيّ. من لها، مثلي، مؤخّرة تهيّج بامتلائها كلّ من ينظر إليها؟ في لباس النوم الشفّاف، أبدو في المرآة بحراً من الرطوبة، يُمتّع من يغص فيه... لكن... لا أحد غيري في المرآة.

أقرب رجل يسكن بجوار بيتنا هو سُهيل. باستثناء ما حدث في ليلة القدر، لا أظنّ أنّه رآني. ربّما لمحني، من بعيد، وأنا في البالطو أو العباءة السوداء، مغطاة الوجه باللِثمة ومسدلة الخِمار من رأسي إلى ركبتيّ. لم يقصدني في وصف الأغنية... لكن... ربّما رآني في الحلم. أليست بعض الأحلام تحدث حقيقة، وأكثر الحقائق تبقى مجرَّد أحلام؟ رآني في الحلم وتيقّن أنّني هي. هذا يكفي.

...

...

وكنتُ إذا سألتُ القلبَ يوماً
تولّى الدمع عن قلبي الجوابا

كنتُ في التاسعة عشرة من عمري عندما أهداني الشريط. باستثناء أبي وأخي، لم يكن قد رآني شابٌّ أو رجل أو طفل منذ أن بلغت الثامنة من عمري. حينها جاء أبي ببالطو أسود يغطّي جسمي من الرقبة إلى القدمين، وبحجاب للرأس ونِقَاب لتغطية الوجه، فيه فتحتان صغيرتان لرؤية العينين. فرحتُ وأنا أرى نفسي في المرآة. شعرت أنّني صرت امرأة، مثل أمّي.

في الثانية عشرة من عمري، فقط، تمنّيت أن يكف أبي عن شراء البالطوهات ويسمح لي بلبس عباءة سوداء كتلك التي رأيتها في عرس بنت خالتي. كانت البنت التي سمعتهن يلقبنها بالعدنية، تلفّ على ظهرها عباءة مفتوحة من الأمام، بشكل يظهر مفاتن جسدها وكأنّها بدون ملابس، بل بدت أنّها ستكون أقلّ فتنة لو أنّها عارية، أو بدون هذه العباءة.

مضى شهران، أو أقل، وأنا أحلم بالعباءة، قبل أن أدرك أنني لن ألبس مثلها، أبداً.

في الثامنة فرحت كثيراً بالبالطو والنِقَاب، أمّا في الثانية عشرة فقد كانت فرحتي قصيرة بالعباءة. حين أخبرني أبي أنّه سيشتريها لي، ظننتها مشابهة لعباءة البنت العدنية. لم أعرف أنّها مختلفة، تماماً، إلاّ بعد أن جاء بها مع الخِمار واللُثْمة. أفهمتني أمّي أنَّ ما اعتدنا على تسميته بالبالطو ونلبسه، أنا وهي وأختي، له تسمية أخرى هي العباءة، وأنَّ العباءة العدنية يسمّونها الشيذر.

يومها شعرتُ لأوّل مرّة أنّني أحمل ثقلاً؛ شعرت أنني لم أعد أمشي، وإنّما أتدحرج ككومة سوداء. سألتُ نفسي أمام المرآة: ما الفائدة من هذا الجسد؟

لم أكن قد اكتشفت أنَّ الآخرين لا يروننني حاملة ثقل، بل يعتبرونني ثقلاً بذاته، عبئاً لا يدرون كيف يظل يباغتهم حضوره.

...

...

ولي بين الضلوع دمٌ ولحمٌ
هما الواهي الذي ثكل الشبابا

لا أدري، هل عشت شبابي كما ينبغي، أم لم أعش؟

لا أعرف، في الحقيقة، ماذا يعني الشباب؟

هل هو سنوات العمر التي تمرّ بنا في هذه المرحلة، أم هو الطريقة التي نعيش فيها خلال مرحلة من العمر؟

لا أقدر على الجواب.

عشت سنوات كنتُ فيها لا أقوى على البوح بأيّ سؤال. إذا ظننتُ أنَّ في إحدى الجُمل المكتوبة تساؤلاً ما، لم أكن أستطيع أن أبيِّن ذلك بوضع علامة الاستفهام.

لماذا ضربتني المُدرِّسة بسبب رسمي للقلب؟ كان هذا هو أوّل سؤال أبوح به.

لماذا كلّ هذا الضرب من أبي؟

حين سمعني أبي وأنا أسأل أمّي في صالة البيت، خرج منتفضاً من الحمَّام وزادني ضرباً فوق ما قد تلقيته. وجّه صفعاته إلى خدّي وكلّ رأسي، وهو يصرخ: «ها... رغم ما عَمَلْتيه ما زلتِ تَسألي!».

ولو خُلقت قلوبٌ من حديد
لما حملت كما حمل العذابا

يومها كنتُ أدرس في الصف الرابع الابتدائي. قبل أن تدخل أستاذة التربية الإسلامية لتعطينا درسها، أخرجت زميلتي التي تجلس إلى جواري من حقيبتها ورقة ملوّنة بأشكال ورديّة رُسم في وسطها شكل، قالت إنّه قلب يخترقه سهم، رسمته أختها الكبيرة لتهديه إلى ابن جيرانها بعد أن كتبت اسمها وسط القلب، واسمه على السهم. همست إليّ أنّها أخذت الورقة دون علم أختها. بدت كأنّها تريد أن تثير فضول تلميذات الفصل حول حوارنا الهامس السرّي، فكركرت بضحكة صاخبة، لفتتهن جميعاً إلينا، كما لفتت الأستاذة القادمة لحظتها. «إيشْ في؟»، صرخت وهي تراها تخفي الورقة في الحقيبة. «ما فيش حاجة ما فيش حاجة» ردّينا معاً.

ولو خُلِقت قلوبٌ من حديد

نعم يا سِتْ أمّ كلثوم، لو... أمّا أنا فقد خَلقتُ قلباً من ورق وحبر. حينها استغربتُ اهتمام زميلتي برسم أختها، وارتباكها وهي تخفيه. أثارتني همساتها وضحكتها. شغلتني الهواجس و لم أستطع الانتباه للدرس. لا أدري كيف رحت أخرج دفتراً وأنزع ورقتين من وسطه لأرسم ما استطعت تذكّره من خطوط ذلك الشكل. لم أعرف ماذا حدث حينها، لكنني إذْ أفقت في غرفة إدارة المدرسة وأحسستُ رأسي مبلّلاً بالماء، وعلى الحال نفسها وجدت ثيابي وصدري وظهري، عرفتُ أنّ

هناك حدثاً ما قد حصل لي. بدت مديرة المدرسة كأنّها تواصل حديثاً مع مدرِّسة التربية الإسلامية الواقفة إلى جوارها: «مُشْ بهذه الطريقة يا أستاذة. قلت لكِ أكثر من مَرّة كُوني اضربي على اليد مُشْ هكذا على الرأس». تحسّستُ رأسي فأدركت أنّها تقصدني. لقد كانت الضربة على رأسي الذي لم يفق، كما بدا لي، إلاّ بعد أن سُكب فوقه الكثير من الماء.

«كونوا رَبُّوا ابنتكم بالبيت... هذي قِلّة حياء، رسم قلوب ورسائل وحُب وكلام فارغ» قالت المديرة لأبي الذي اتصلت لاستدعائه وكان لها ما أرادت منه. عرفتُ يومها أنَّ التربية تعني الضرب، لكنّني لم أعرف ماذا يعني رسم قلب، وماذا تقصد المديرة في حديثها عن رسائل الحب والكلام الفارغ.

لم أقو على السؤال. من يومها، بقيت سنوات طويلة لم أعد أتساءل، أو أضع حتى علامة الاستفهام، في أيّ موضوع أو درس أكتبه، بل لم أعد أفكّر، لمجرَّد التفكير، في وضعها. ربّما كنتُ قد نسيتها خلال تلك السنين. بعد كل عبارة أو جملة محتارة ظللت أضع نقطة لإنهائها أو إسكات حيرتها، وأضيف نقطة ثانية لإخراسها، تماماً.

حين استعادت ذاكرتي علامة السؤال؟ صرت أكتبها في كلّ سطر، إذا اقتضتها الضرورة، أو لم تقتضها.

...

...

ولا ينبئكَ عن خُلقِ الليالي
كمَن فقد الأحبّة والصحابا

كان لي أولاد خال وأعمام وأبناء جيران، هم أحبّتي وأصحابي. في الثامنة من عمري صاروا غياباً، حدثاً كأنّه لم يكن. أنا بنت، وليس عليّ تذكّرهم والحديث عنهم «انتبهي يا بنتي... هذا عيب».

أردت أن أقول لأمّي: أرغب في معرفة العيب. ظننت أنَّ قولي هذا لها مجرَّد قول، أو رغبة، لكنّني عدت وأزحت هذه الظنون، إذْ وصلت بتفكيري إلى أنَّ الرغبة سؤال، وأنا لا يحق لي أن أسأل.

نشوان، ابن جارنا التَّعزي الذي يُقارب عُمره عمري، كان ماهراً في صنع الطيّارات الورقية. كُلّ واحد من أطفال الحارة يحصل على واحدة منه. لكنَّ طيّارته تظل هي الأفضل والأبعد والأرفع في التحليق. يظلّ يتابع، بعينيه، مسارها وهو يمسك بطرف الخيط الذي يذهب بها بعيداً في الأعالي. كان يبدو لي كقائد ماهر يوجّه طيّارته بفن وذكاء وخبرة. لم أتوقّع في يوم ما أنَّ الطائرة ستفلت منه، أو أنْ يحرِّر خيطها من أصابعه.

في آخر يوم التقينا فيه ضمّ الخيط بأصابعه العشرة، ثم رفع يديه إلى أعلى رأسه ليطلق منهما طرف الخيط، وهو يقفز ويصيح: هيييه.

بقيت أحلّق مع الطائرة بعينيّ. قلت لنشوان: لماذا أطلقتها بعيدة عنك؟ قال: ليست بعيدة عنّي، أنا الآن أحلّق معها.

أردت أن أقول له: لماذا لا تأخذني، أحلّق معك؟ إلاّ أنَّ ذلك بدا متأخراً، إذْ كان نشوان قد مضى يحلّق بعيداً، بعيداً عنّي، يطير إلى ما لا نهاية.

الوجه الثاني من الشريط

في الصف الأوّل الإعدادي، أو الصف السابع الأساسي، عرفت لماذا أخي رقيب يدعوني روزا؛ وإذْ أعطاني كتاباً بعنوان **رسائل حب** فقد استعدت الكلمتين اللتين قالتهما مديرة المدرسة لي، قبل ثلاث سنوات، بنبرة اتهام.

لم ينادني أحد في البيت باسمي. أمّي كانت تناديني: أميمتي، وأحياناً: أمّي الصغيرة؛ تميّز بذلك بيني وبين أختي لولا التي تناديها: أمّي؛ عوضاً لها، ربّما، عن أمّها التي ماتت وهي صغيرة. حين أسمع أبي يقول: «يا بنت... أين البنت؟». أعرف أنّه يقصدني. «يا مفعوصة» تناديني أختي لولا بمزاج مرح لا ينقطع، وهي الصفة المحبّبة لديّ، حتى إنني كدت أجيب أكثر من مرّة، على من يسألون عن اسمي: مفعوصة.

«كوني حُرّة ورائعة مثل روزا لوكسمبورغ، اقرئي كتابها هذا وستعرفين قيمة الحياة» قال رقيب.

كان **رسائل حب** هو أوّل الكتب التي ظلّ أخي يناولني إيّاها لأقرأها خفية عن أبي.

لم أكن قد استوعبت ما يقوله رقيب للولا: «أؤكد لك بإيمان عميق أنّ الشيوعية هي التي ستسود هذا العالم في النهاية». لم تكن بدورها تخفي مشاكستها، وتعتقد أنّه يعيش خارج العصر: «ما تقوله مجرّد أوهام... ألا تعرف أنّ الاتحاد السوفياتي قد تفكك من زمان؟»

...

...

وكان بيانه للهدي سُبلاً
وكانت خيله للحق غابا

من تقصد أم كلثوم بأغنيتها؟

لم تكن لدينا مُسجِّلة أو تلفزيون في البيت. أبي لديه راديو روسي قديم يظل يسمع منه إذاعتين لا ثالثة لهما.

«هنا لندن وإذاعة القرآن الكريم من مكّة المكرّمة... يا للمهزلة... استخدام راديو صُنع في بلاد البلاشفة... في بلاد فلاديمير إليتش لينين العظيم ليكون بوقاً لإذاعة دولة إمبريالية وإذاعة أخرى رجعية» غالباً ما كنّا نسمع رقيب يردِّد مثل هذا القول، في غياب أبي، طبعاً، الذي يحرص على أن يخبّئ الراديو في صندوق مُقفل، كما يقفّل التلفون. كانت أمّي إذا فوجئت أثناء الطبخ بانتهاء بعض الحاجات فإنّها تنتظر أبي حتى يأتي ويفتح التلفون، لتطلب عبره من جارتها زوجة سهيل، أو أم نورا، أن تدع أحد أطفالها يناولنا من الباب رأس بصل أو ثوم، أو ملح، أو سكّر.

بدا لي أنَّ أمّي لا تستطيع أن تنادي جاراتها من نافذة البيت، و لم أعرف لماذا، إلاّ في ما بعد، حين سمعت أستاذة التربية الإسلامية تقول: إنَّ صوت المرأة عورة لا يجوز أن تظهره كوجهها.

...

...

لولا ملكت آخر موديلات التلفون النقّال، لكن لا أحد، غيري، في البيت، عرف ذلك.

حين دسّت زميلتي في الصف الثالث إعدادي، خلسة، شريط فيديو في حقيبتي، لم أشأ أن أقول لها: ليس لدينا جهاز فيديو أو تلفزيون.

في اليوم التالي لم أرد على همسها: «أعجبك الشريط الثقافي؟ باين عليك ما اشْتِرَجّعيهوش». اكتفيت بالابتسامة وهَزّ رأسي علامة على أنّني سأعيده بالتأكيد.

قلتُ للولا في البيت: «صاحبتي أعطتني شريط فيديو ثقافي ومُش عارفه كيف أشوفه؟». حدّقت نحوي بفزع، وقبضت على عضدي لتسحبني إلى المطبخ: «إيشْ إيشْ؟... ما تقولي... أصَهْ أصَهْ لا يسمعك حد... مالكْ تجنّنتي يا مفعوصة؟».

لم أدر سبب كل هذا الخوف والارتباك. أضافت بهمس غاضب: «أبي حرّم علينا التلفزيون لأنّه ما يشتينا نشوف رِجَال فيه وأنتِ تشتي تشوفي فيلم ثقافي في البيت». و لم تهدأ، رفعت درجة صوتها قليلاً: «أبي قال إذا شفنا رِجَال بالتلفزيون واستمعنا لهم يعتبر اختلاءً مع أجنبي مُحرّم شرعاً... وأنتِ... أنتِ...»

«ما أفْعَلْ... صاحبتي تسألني: ها شفتي الفيلم... كيفه... إيش أقول لها. هل أرجّعه؟».

«مُش هو فيلم ثقافي كما قلتِ؟» سألتني و لم تنتظر الإجابة: «قولي لها شفته وأعجبني. هو مثل الأفلام الثقافية كلّها زِيطْ مِيطْ».

حرّكتُ رأسي ويدي مستفهمة.

«ما تعرفيش الزّيطْ مِيطْ؟ يعني عِراب... مِصْمَاص ولِحّاس

ونيك... واحد فوق واحدة يَرْكَبْهَا... أو واحدة مُقَرْفِصَة تَطلَع وتَنزُل فوق واحد».

«يووووه... ما هو... ما تَقولِيْ... هي هكذا الأفلام الثقافية؟».

نظرت إليّ وبدت أنّها تفهّمت جهلي بما تقوله.

«وأنتِ يا مفعوصة... كُلّ هذا وما تدريش ما هي الأفلام الثقافية؟»

ضحكتْ بصوت عالٍ أزال عنّي بعض ارتباكي، قبل أن تضيف: «رجّعي لها شريطها. في أقرب فرصة سآخذك معي إلى بيت واحدة من صحباتي لتشوفي فيلم ثقافي وتعرفي كيف هو الزّيطْ مِيطْ».

...

وعلّمنا بناء المجد حتى
أخذنا إمرة الأرض اغتصابا

لم تعد زميلتي تسألني عن شريط الفيديو وأنا لم أبادر في إرجاعه إليها. بقيتُ أخفيه بين كتبي المدرسية، أروح وأرجع وهو معي. تمنّيت ألاّ تسألني عنه حتى أجد الفرصة لمشاهدته. رأيت أنَّ مشاهدته فرصة من فرص العمر التي يجب أن لا أضيّعها. بدا لي أنَّ زميلاتي، معظمهن، كُنّ قد حصلن على فرصة كهذي، بل على فرص أخرى كثيرة. ألا يتميّزن عني بحركات مشيهن الغنوجة أو الرّاقصة التي يظهرن بها؟

كانت الواحدة منهن، بعد انتهاء طابور الصباح أو بعد العودة من الراحة في منتصف الساعات الدراسية، ما إن تضع إحدى قدميها في الباب لتدخل الفصل حتى تهزّ وسطها، وكلّ جسمها، كما تعمل

الراقصة التي شاهدتها في ما بعد في فيلم مصري؛ ثمّ تمضي بخطوات غنوجة، بين الكراسي والطاولات، تتفنّن خلالها بتحريك وسطها حتى تصل إلى مؤخّرة الفصل، ومن هناك تعود لتجلس في مكانها المعتاد، لتتبعها طالبة أخرى تستعرض مواهبها، أيضاً.

لم أكن أجيد ما يقمن به. لكنّني لم أستسلم وواصلتُ محاولة تقليدهن يومياً، حتى تحوّلن من الضحك عليّ إلى ما يشبه الإعجاب. اثنتان كنّا خارج السرب، رفضنا حتى مجرّد مشاهدة أدوار الاستعراض. واحدة سمّينها الشيخ والأخرى المجاهد. عندما تطلاّن من باب الفصل، تصرخ الطالبات: وصل الشيخ المجاهد. كأنهن يشرن إلى شخص واحد. لم أجاريهن في هذا السلوك الساخر، وفضّلت الصمت. في ما بعد صارتا تتأخران في الدخول حتى اللحظة التي تصل فيها المُدرِّسة فتتجنبان تعليقات الطّالبات التي تتحوّل حينها إلى ضحكات مكتومة.

...

...

وما نيل المطالب بالتمني
ولكن تؤخذ الدنيا غلابا

ما إن كان أبي يفتح باب البيت ليذهب إلى عمله في مؤسسة الكهرباء حتى نسمعه يردّد «يا فتّاح يا عليم يا رزّاق يا كريم». وهو الدعاء الذي كان يستثير رقيب، فلا يكفّ عن التعليق عليه «لو أنَّ الله موجود فعلاً لرزقك وتركك غنيّاً، ليس رحمة منه، وإنّما لِضَبَحه وضجره من كثرة دعائك». أمّي تصيح محتجّة: «اتق الله في روحك... لا تكفر بالله...

مَن خَلقك؟». كنتُ أتساءل ماذا سيعمل أبي لو سمع هذه التعليقات. مرّة خرج وهو يقول «يرزق من يشاء بغير حساب... لا إله إلاّ الله»، فانفجر رقيب بضحكة عالية «يعني هكذا... مزاج... يغني من يشاء ويفقر من يشاء... كيف يُعبد إله يتصرّف هكذا؟». يومها ظلّت أمي تصيح في وجهه قائلة إنَّ هذا كفر بالله، داعيةً الله ألاّ يعاقب ابنها بسبب هذا اللغو، وارتدّ صدى ضحكة رقيب العالية نشيج بكاء من أمّي، لم تستطع إيقافه سوى نورا، ابنة الجيران، حين جاءت في العصر تزور لولا.

كُنَّ نجلس نحن الثلاث، أنا ولولا وهي، حين كفكفت أمّي دموعها وقالت إنّها ستروح تصلّح شاهي للضيفة. لم نبال نحن بذلك. بل إنَّ لولا قالت لصديقتها الحميمة بصوت تمثيلي ساخر «هذا واجب، يا ضيفتنا العزيزة. علينا إكرامك». مضينا بضحكات مُجَلْجِلَة حفّزت رقيب على أن يدخل فجأة ليرانا ويستطلع سبب ضحكاتنا. بقي في الباب مرتبكاً «أنا آسف... لم أعرف أنَّ في واحدة عندكن». عيناه ظلّتا شاخصتين إلى نورا، وبدا غير قادر على أيّ قول أو فعل. لم يتراجع ويخرج إلاّ بعد أن انزوت نورا بيننا، مكوّمة جسدها حتى لا تظهر مفاتنها التي كانت قد حرّرتها من العباءة عند دخولها. حفّزنا الموقف المفاجئ على المزيد من الضحك. شبّهت نورا شكل رقيب، وهو يدخل، بالعسكري الذي فاجأ المجرم متلبّساً بجريمته، أمّا لولا فرأت فيه حال الزوج الذي فوجئ بزوجته وهي في أحضان رجل آخر. لم تثرني تشبيهاتهن، فهو لم يتخذ موقفاً متوقّعاً كما في حال العسكري أو الزوج، بل ارتبك وتلعثم وانسحب بصورة تستوجب الرثاء والتعجّب أكثر من الضحك.

«أشتي أتزوَّج هذي البنت... أرجوكِ اخطبيها لي» قال رقيب

لأمّي بعد أن غادرت نورا مباشرة، و لم نكن نتوقّع أنّه قد تولّه بها إلى هذا الحد.

ظلّ الفيلسوف، كما يسمّيه أبي، يرفض أيّ محاولة تقوم بها أمّي لتزويجه من بنت إحدى قريباتها أو معارفها. كان يقول إنّه يريد بنتاً منفتحة، لا تلبس العباءة ولا الحجاب، متحرّرة من إرث الرجعية واستلاب الرأسمالية. هل وجد هذه الشروط عند نورا التي لم يكن قد رآها من قبل؟ لا أظنّ أنّه رآها منذ أن صارت في العاشرة من عمرها، أو أقل، سوى في العباءة والخمار واللثمة، مع أنّ باب بيتهم يقابل باب بيتنا، تفصل بينهما ثلاثون خطوة على الأكثر.

أمّي التي فاجأها طلبه حاولت ثنيه عنها:

«هناك من هي أجمل وأفضل منها».

«لا أفضل ولا أجمل من نورا».

«بنات الله كثيرات يا ابني».

« لم يخلق ولن يخلق الله بنتاً كنورا».

لأوّل مرّة أسمع اعترافاً غير مباشر من رقيب [أصرَّ على أن نناديه برقيب، لا عبد الرقيب كما سمّاه أبي، إذ لم يكن يعترف بكونه عبداً للرقيب، الذي هو أحد أسماء الله] بوجود الله. تساءلت، هل يمكن لمن حفّزني على قراءة مبادئ الفلسفة لجورج بولتزر ونقد المجتمع الذكوري وملخّص كتاب لينين عن مذهب النقد التجريبي أن يصبح مؤمناً بالله، هكذا، وبسهولة؟

...

...

وما استعصى على قوم منال

إذا الإقدام كان لهم ركاباً

لم يعد لدينا سوى ترقّب موعد زفاف رقيب ونورا، بعد أن نجحت أمّي في خطبة ابنة الجيران لولدها الوحيد. رقيب يكبرني بتسع سنوات، ولولا بست سنوات. لم يكن قد حصل على وظيفة رغم مرور سنتين على حصوله على بكالوريوس في الأدب الإنكليزي، أمّا لولا فقد توظفت في شركة للاستيراد والتصدير بعد إكمالها للثانوية العامة. وافق أبي بصعوبة على مواصلة دراستها الجامعية، وصار عليها أن توفّق بين عملها وحضورها المحاضرات. تخرج في الصباح ولا ترجع إلاّ مع مغيب الشمس. كان القسط الشهري الذي تسلّمه لأبي من راتبها كمساعدة على مصاريف البيت كفيلاً بأن يدعه يغض الطرف عنها، فلا يراقب وقت دخولها أو خروجها من البيت، كما يفعل معي.

إلى جانب عمله النهاري اليومي، يناوب أبي ليلة في الأسبوع ويبقى هناك إلى الصباح. في إحدى تلك الليالي، وبينما كان يزوّد مولّدات الكهرباء بالوقود، حيث يعمل، كانت لولا تزوّدني بأوّل جرعة ثقافية.

...

...

«وقته... وقت الزِّيطْ مِيطْ» قالت بعد أن أغلقت باب الغرفة التي ننام فيها. جلسنا نسمع صوت شريط كاسيت أخرجته من حقيبتها، وأدخلته في مُسجِّلة صغيرة، قالت إنّها استعارتها من زميلتها في العمل. **هذه المسجِّلة التي بقيت ضمن أشياء لولا الخاصّة، ولم تعاد لصاحبتها، هي نفسها التي استعيد عبرها سماع هذا الشريط والشرائط الأخرى:**

«آه... آه... أحْ... أحْ... دَخِّله أرجوكْ... لو سمحت نِيْكَني... نِيكني... دَخِّل رأسه».

كانت مفاجأة، بل أوّل مفاجأة في حياتي أن أسمع مثل هذا. لقد كان يوماً فاصلاً في عمري كلّه. ارتبكت وكدت أسأل لولا: ما تقول هذي في الشريط، من تعني وماذا تقصد؟ إلاّ أنَّ جسدي سرعان ما قام بهذه المهمّة التعريفية، جسدي كُلّه أشعرني أنّه يفهم، تماماً، ما يجري، لقد بدا معنياً بما أحسّ به لحظتها أكثر منّي، وشعرتُ لبرهة كأنّني كنت موازية له، في محاذاته، ولست هو، منه وفيه. ثمّ تنبّهتُ ووجدتني، بتأثير من اللحظة ربّما، أنّني لست موازية له بل تابعة لسيطرته، إذْ بدا أنّه يهيمن على كلّ حواسي، بل وكلّ تفكيري وكلامي وحركتي. هكذا، كشف لي، بيني وبينه، خفايا ما أسمع وشجّعني على الإنصات باهتمام:

«أرجوك... بَسْ رأسه... أرجوك... أيوه ... أيوه كذا... أيْوَه... أيوه... أيوه... دَخِّله أرجوك... أرجوك... دَخِّله أرجوك... أرجوك... أرجوك... أرجوك... أرجوك».

كُنت مشدودة للصوت، أستطيع أن أحصي كم مرّة سمعت

(أرجوك) هذه. خفضت لولا صوت المُسجِّلة، مع هذا بقيت الكلمات التي تخرج منها كبيرة، بل كانت تكبر أكثر وأكثر، وشعرتُ كأنّها تخرج من جسدي أنا، لا من تلك التي في المُسجِّلة:

«أيوه... أيوه... كِذا».

«ما بِكْ؟» صوت رجل.

«حالي» تجيبه.

«ما هو الحالي؟»

«حقّك... حقّك... حقّك حالي... حالي ... حالي أحلى من الحلوى».

«ما هو حقّي؟»

«حقّك... زُبّك... زُبّك... أرجوك خلّوه يدخُل... دَخِّله».

كانت المسجِّلة بين أذنينا، تَقَاربنا ليلتصق رأسانا بها تماماً.

«نحن اتفقنا على رأسه» يقول لها.

«على شأني... أرجوك... على شأن خاطر كُسّي... دخِّله نُصُّهْ... أُوه... أوه... زِدْ قليل... دَخِّله شُويَّة... نُصُّه... أرجوك نُصُّه... حالي... أيْ ...أيْ... كذا... أيْوَه... حلو ... حلو... ما هو الحالي؟ [صوت رجل] ... زُبّك... زُبّك حالي... أيوه... أيوه كذا حالي... أيوه... أيوه... أيوه... أيوه... أيوه... إطعنّي بقوّة... إرهزني بقوّة... دَخِّله... أرجوك كُلّه... كُلّه... كُلّه كُلّه... آح... آآح...».

عند هذه اللحظة أغلقت لولا المُسجِّلة فجأة. قالت إنَّها سمعت حركة بجوار الباب. تشنّجت أعصابي، وثار جسدي. رجوتها أن

أكمل سماع الشريط.

«يكفي كذا، بقيّة الشريط فيه الكلام نفسه أو مثله».

«أشْتي بَسْ أعرف النهاية. أرجوكِ».

«إيشْ مِنْ نهاية؟»

«هل دَخَّله كُلّه... وإيش عملوا بعدها؟»

«يوووه والفعلة... خلّيناها تتشاقر من ثقب الباب قامت تشتي تدخل».

قالت ضاحكة.

...

...

لم أنم في تلك الليلة، ولا الليلة التي تليها، بل، ربّما، لم أعد أنام، أبداً، نوماً هادئاً منذ تلك الليلة.

في الليلة التالية عاودنا سماع الشريط، الذي ظلت لولا تحتفظ به بين **أشيائها الخاصة السرّية**. كان حذرنا أكبر، فأبونا في البيت، وهو ينام نوماً خفيفاً ويستيقظ كثيراً.

«**سكس بلدي**» انتبهت إلى وجود هذه العبارة مكتوبة على الشريط. كنّا ملتصقتين نسمع الكلام نفسه والتأوّهات نفسها. شعرتُ بلذّة مضاعفة وأنا أضمّ ساقي لولا بين فخذيّ. كنتُ أتلوّع مرتعشة. مدّت يدها اليمنى إلى وسطي وأزاحت السروال إلى الركبتين وراحت تمسح براحتها فوق فخذيّ وبينهما، ثمّ قلبتني على ظهري ووضعت أصبعها الوسطى فوق بظري وحكّته حكّاً سريعاً. دغدغتني الحركة فضحكت. همست بأن أصمت، وظلّت حيناً تدلّك بين الشفرين برأس إصبعها،

وحيناً تحكّ بظري، فيما الشريط يمشي «دَخِّله كُلّه... أيوه... أرجوك دَخِّله... دَخِّله» فأهتاج وأتلوّع وأكاد أصرخ.

لم أهدأ بسهولة. ألا تحتاج لولا لإصبعي أيضاً؟ مددتُ يدي إلى وسطها، لكنّها سرعان ما أمسكت بها وأزاحتها: «أنا مثل اللي في الشريط... أشتيه هو... زِيطْ مِيطْ... يدخل كُلّه... يرهزني... يطعنّي الأوّل والثاني والثالث لمّا يشبعني... لمّا يقتلني... يتركني ميّتة».

اندهشت لما سمعت. ألم تعد عذراء؟ هل فقدت العذرية التي أوصتنا أمّنا بالحفاظ عليها مئات المرّات، وخوّفتنا حتى من القفز لكي لا نفقد البكارة التي هي شرفنا وشرف العائلة، كما كانت تقول؟

قبلها بأشهر كنت قد شعرت لأوّل مرّة بذلك السائل الداكن بين فخذي، فهرعت إلى أمّي. «ما تخافيش... قد بلغتِ... قدكْ مَرَة يا بنتي».

صرتُ امرأة، و لم أعرف من سيكون رجلي الذي سأتلوّع تحته مثل تلك التي في الشريط؟ هل كانت تحته أم هو تحتها؟ ربّما هو الذي كان تحتها، تتلمّسه وتعاركه فيما يده قابضة على حقّه، فلا يمنحه لها سوى بالتقسيط، لكنّه تقسيط حلو، لذيذ، قليلاً قليلاً إلى أن يصل.

مكتبة الفكر الجديد

الوجه الثاني من شريط الأغنية (إعادة)

لم يعترض رقيب على مواصلة نورا لدراستها الجامعية، إلاّ أنّه كان كثير الأسئلة عن مواعيد محاضراتها، وعن أساتذتها وزملائها. يسألها عن أسمائهم، أشكالهم، ملابسهم، تسريحات شعرهم وهل تتحدّث معهم.

بدت نورا كثيرة المراوغة، بشكل لم آلفه من قبل. كنتُ جالسة إلى جوارها حين قالت له «تصوَّر واحد شكله وسيم قَوِيْ. كان يشتي يكلّمني. معتز بوسامته وأناقته. قال لي: صباح الخير، وما ردِّيتش. أهملته ومشيت لكنّه لاحقني وقال: أرجوكِ أشتي أنقل منك ملخَّص محاضرة أمس عن أسس علم النفس لأنّي ما حضرتهاش».

ظهرت ملامح وجه رقيب مُنْشَدّة بقلق لما تقوله، إلى أن سمع منها الجُملة الأخيرة: «... لكنّي مشيت. ما التفتشْ له، ولا قُلت له حتى كلمة واحدة». لحظتها، فقط، تحوّلت الملامح إلى حال منبسط أبدت علامة رضى.

باعت أمّي ذهبها لتسهم في دفع ربع مَهر نورا، فيما دبَّرت لولا ربعاً آخر. ما كان مستغرباً لدينا هو كيف استطاع رقيب تدبير النصف الثاني من المهر وهو الذي لم يحصل على عمل إلاّ في اليوم التالي لقراره الزواج من نورا؟

صار عليه أن يكف عن القراءة الليلية ليصحو باكراً ويذهب ليدرِّس في أحد معاهد تعليم اللغة الإنكليزية. بدا أنّه استبدل القراءة بنورا،

ففي الأسابيع التي سبقت زواجه، كان يقول، إذا سألته عن سرحان باله الدائم، إنّه يتذكّرها ويفكّر في مستقبله معها، أمّا بعد الزواج فصار واضحاً أنَّ لواعج جسدها الشبق قد احتلّت وقته الليلي، بل، ربّما، كلّ وقته.

وكان بيانه ... ...

...

...

مثل المرّة السابقة لم أركّز على بداية شريط الأغنية. سأسمعها في وقت لا تكون هواجسي فيه مشغولة.

أهم تغيّر حصل في بيتنا ليس مجيء نورا، بل تأدية رقيب للصلوات الخمس، بما فيها، طبعاً، صلاة الفجر. في اليوم الأوّل حين جاء إلى غرفتنا ليصحّينا مبكراً لأداء الصلاة ظننته يمزح، قال: «هيّا أعذبنا الشيطان وقمنا صلّينا. يسعدكن الله ويرزقكن بأبناء الحلال».

«ما هوْ ما هوْ... ما تقول؟ كذا عيد ما قلته» قالت له لولا بلكنة ساخرة.

«قومي أحسن لك. الصلاة خير من النوم» أجابها.

«مُمَثّل ناجح يا سيّدنا الشيخ. هداك الله. روح جنب زوجتك وخلّينا ننام» قلتُ بدوري. لكنَّ المسألة بدت جادة و لم يدعنا إلاَّ بعد أن قمنا نصلّي، فلا جدوى من المقاومة وقد صرنا نسمع حركة أبينا

الذي كان هو الآخر قد صحا من أجل الصلاة.

«انحراف ديني خطير» قالت لولا وهي تعود إلى فراشها بعد الصلاة، ومضت في ضحكة مجلجلة لم تستطع البطّانية، التي سحبتها إلى فوقها، تغطيتها. تحدّثنا بهمس عن هذا الانقلاب المفاجئ في حياة رقيب، فطال الهمس إلى أن باعد بيننا وبين العودة إلى النوم. رقيب هو الوحيد الذي لم يكن يؤدّي أيّ صلاة إلاّ إذا اضطر ليقوم بذلك، وبدون قناعة إيمانية. أيّامها، كنتُ أتظاهر بأداء الصلاة، أذهب للوضوء في الحمّام ثم أدخل إلى غرفتنا وأختفي بعض الوقت، فيظن أبي وأمّي أنّني في حال تهجّد وخشوع. لولا تعتبرها رياضة، تقوم بها في الأوقات المحدّدة لها؛ قد تتأخر قليلاً في أداء صلاة الصبح بسبب النوم، لكن تأخرها لا يصل إلى وقت بدء خيوط النهار.

في الصباح، أخذت لولا بيد نورا وسحبتها إلى غرفتنا «مالِكْ... ما فعلتِ به؟ بدلاً من أن تروّضيه تركتيه ينحرف هكذا».

«ما هوْ... ما تقولي؟» سألت نورا.

«سيّدنا الشيخ رقيب الذي ضَبَّح بنا وهو يكلّمنا عن ماركس ولينين وجدتنا روزا لوكسمبورغ والعالم المادي والفكر المثالي، بكلّ بساطة يشتينا نقوم من عزّ النوم، مع الأذان الأوّل، لنصلّي الصُبح».

«وأنا ما أفْعَل له؟ حتى طلب منّي أغيّر عباءتي لتكون محتشمة أكثر. وسألني ما فائدة دراستي لعلم النفس. خائفة لو يقول لي بطّلي الدراسة».

«رَوِّضيه... طعّميه لذّة الحياة... ما بِكْ هكذا؟».

«أخوك متخلّف... قَبيلي... ما عَرَّفه بهذا؟». قالت نورا، وهي تضحك.

...

...

وعلّمنا بناء المجد حتى
أخذنا إمرة الأرض اغتصابا

انتظرتُ أن تسألني صاحبتي مُجدّداً عن الفيلم الثقافي الذي كانت قد أعطتني إيّاه، لكنّها فاجأتني بإعطائي فيلماً آخر، اعتبرته، مع الأوّل، هديّة لي.

خطرت في بالي فكرة الذهاب مع نورا إلى بيت أسرتها لمشاهدة الفيلمين، وهو ما حصل بعدها بأيّام. قامت لولا، التي انزعجت من بقاء الشريط السابق معي، بترتيب ذلك مع نورا.

...

...

شريطان ثقافيان – فيديو

سأستعيد الشريطين المخزونين في تلفون لولا النقّال.

لقد حرصتُ، ذلك اليوم، على تسجيلهما ونسخهما.

...

...

[جسدان عاريان لرجل وامرأة... مصٌّ ولحس... تأوهّات وتلوُّعات... فتح ودخول... زِيطْ ميطْ... رهزات متبادلة من أعلى وأسفل... يتشابكان جلوساً وجهاً لوجه... ينبطح على ظهره... تعتليه كفارسة فوق حصان... تدقّ راكضة فوقه حتى تصل...]

...

...

الفيلم الثاني يبدو وكأنّه يشرح الأوضاع الجنسية بطريقة عمليّة.

مع كلّ وضع كُنّا نشاهده تكرّر لولا قولها لنورا «شُوفي... تعلّمي... خَلّيه ينشغل... يطعم الزِّيطْ مِيطْ على أصوله... يتذوّق لذّة الحياة».

تكتفي نورا بالضحك. من الواضح أنّها كانت قد شاهدت أفلاماً مشابهة، إلاّ أنّها لا تمتلك الخبرة العمليّة مثل لولا.

شدّني أحد الأوضاع تماماً. تمنيت أن يحصل لي مثله:

...

...

امرأة نائمة على سريرها. يدخل رجل ويتعرّى. يسحب الغطاء من فوقها. يظهر جسدها في لباس نوم شفّاف. يدخل يده تحت اللباس، يمسح براحته صدرها ونهديها ورقبتها. تبدو اللمسات مثيرة بحركاتها الدائرية الخفيفة. يكرّر ذلك عدّة مرّات. يهبط بيده إلى وسطها، بالحركة نفسها، ويمرّرها إلى بين فخذيها، تحت السروال النِّكس. بخفّة مُدرَّبة يزيل السروال بأصابعه. تبدو المرأة نائمة، غير

مدركة لما يحدث لجسدها. يعطف ساقيها إلى الفخذين، ثم يباعد بينهما. ينحى رأسه إلى وسطها ويقبّلها بين الفخذين. يشدّ وسطها إلى فمه وأنفه ووجهه، بشغف. **الحركة التالية**، تبرز الكاميرا قُبلة هادئة على كُسّها، قبلة ثانية وثالثة ورابعة. يلامس بشفتيه رأس بظرها، يقبّله، يلامسه برأس لسانه. تزداد حركة لسانه، تتحوّل إلى مصٍّ جذّاب للبظر [أووووه... لم أكن أريد أن أستعيد هذا] لسانه يلحس في اتجاهات أخرى، صعوداً وهبوطاً ودائرياً، تشمل كل ثنايا الكُسّ.

من الواضح، أنّها لم تعد قادرة على إخفاء تهيّجها، وإن ظلّت تحاول أن تبدو أنّها ما زالت نائمة.

يبعد رأسه من وسطها ويقرفص. يلصق جذعه بوسطها ويبدأ الزِّيطْ مِيطْ.

بين الرهز والطعن تمضي لحظات، لا تبيّن لنا الكاميرا تفاصيلها. يهتم القادم، بعدها، بإعادة سروال من تبدو نائمة إلى مكانه، ولا ينسى تغطيتها قبل أن يمضي.

تستيقظ المرأة مبتهجة. تتلفّت وكأنّها تتساءل: هل كنتُ في حلم أم في حقيقة؟

...

.

.

لأرجع إلى أم كلثوم

...

...

وما نيل المطالب بالتمني
ولكن تؤخذ الدنيا غلابا

عبد الرقيب، الذي أصبح يرفض أن نسمّيه رقيب، ملأ البيت بالكتب وأشرطة الكاسيت الدينية. أمام غرفته، التي ظلّ متمسّكاً بها، في سطح المنزل أقام محرقة، تخلّص فيها من كُتب ومنشورات وشرائط لأغانٍ ثورية كان قد راكمها طوال سنوات الضلال، كما صار يسمّيها.

في أيّام عُرسه الأولى اختار غرفة البيت الثالثة المجاورة لغرفتنا لتكون له ولعروسه. أعدنا ترتيبها ووزّعنا الأشياء المُخزّنة فيها في الديوان والصالة وسطح البيت، لكنّهما لم يمكثا فيها سوى أربع ليال. قالت نورا إنّه لم يردنا أن نسمع ممازحاتهما الليلية. فضّل أن يناما في غرفة السطح بعيدين عنّا.

«وهل الشيخ عبد الرقيب يعرف المزاح أو الضحك أصلاً؟» قالت لولا، فيما اكتفت نورا بضحكة خافتة، كعادتها.

وما استعصى على قوم منال
إذا الإقدام كان لهم ركابا

...

...

حين أهداني سُهيل شريط أم كلثوم كنتُ قد قرّرت دخول الجامعة الإسلامية. بنات كثيرات فضّلن دخول هذه الجامعة. شروط القبول

فيها لا تزيد عن حفظ وتجويد ثلاثة أجزاء من القرآن الكريم. حتى مسألة التجويد لم تكن مطلوبة تماماً، كما بدا لي وسمعتُ من الطالبات السابقات. قبلها بثلاث سنوات لم نكن نسمع عن هذه الجامعة. كان أسهل لي أن أحفظ ثلاثة أجزاء بدلاً من البقاء ثلاث سنوات في المعهد العِلْمي. مضت تلك السنوات وكأنّني لم أعشها. كنتُ أرغب في دراسة سنوات الثانوية الثلاث في المدرسة نفسها التي أمضيت فيها مع زميلاتي وصديقاتي تسع سنوات، لكنّني لم أستطع البوح برغبتي. يومها قال عبد الرقيب ونحن نتناول العشاء: «بُكرة الصباح تروحي تسجّلي في المعهد العلمي الإسلامي القريب من هنا، في الشارع الثاني. سأوصلك إلى أمامه. المعاهد العلميّة تُدرّس العلوم الدينية أحسن من المدارس. تربّي الطلاّب والطالبات على منهج الإسلام الصحيح».

ما كاد يكمل قوله حتى التفت أبي، سريعاً، إليّ: «سمعتِ ما قاله أخوكِ؟ بُكرة تروحي معه».

وما استعصى على قوم منال

...

...

منذ اليوم الأوّل شعرتُ أنَّ المعهد يختلف تماماً عن المدرسة. في الصباح، حين دلفت بوّابة المعهد، انتبهت إلى وجود مُشرفة تقف

بجوار الباب وبيدها عصا خشبية رفيعة. وضعت يدها اليسرى على كتفي اليمنى وراحت تتفحّص بعينيها ملابسي وشكلي من أعلى الرأس إلى القدمين، وفجأة رفعت العصا عالياً: «ما هذي المسخرة... أنت جِيتي تدرُسي وإلاّ تَرْقُصي؟» اندهشت من قولها. أشارت بالعصا إلى الباب «هيّا بسرعة ارجعي بيتكم... ما تجيْ هانا إلاّ بعد ما تلبسي عباءة واسعة فضفاضة وتغطّي عيونك بلُثمة غَليظة مُش خفيفة. واشتري جزمة إسلامية واطئة في الأرض».

يومها لم تكن لولا قد غادرت البيت. أخرجت عباءة قديمة لها: «هذي ربّما تناسبهم» قالت. وإذْ راحت تبحث بين ملابسها عن لُثمة، أضافت «ما عَدْ يشتوْ قَدْ هو شَكْلِكْ مِثل خيمة. مَنْ عد شِشُوفِكْ وأنت هكذا؟»

أردت أن أعود مجدّداً إلى المعهد. في باب البيت رأيت الجوَّ في لون مختلف. صار داكناً أكثر. بدا لي الفضاء، بعد أن لبست اللثمة الغليظة، كأنّه ظلال واسعة تفترش الأرض وتمتدّ إلى الأفق. بل رأيت كلّ ما حولي أصبح ظِلاً واحداً، ظِلاً لضوء مختفٍ أو أنّه لا يُرى.

تذكّرت الجزمة الإسلامية فعدتُ إلى لولا.

«جنّي يَشِلّهِنْ وَيشِلّكْ... ما باقي؟ قد هي جزمتك أوطأ جزمة».

«رُبّما، رُبع الإصبع الزائد في كعب الحذاء مخالف للشريعة الإسلامية» قلتُ لها.

«خلاص كلّمي الشيخ حقّنا يشتري لِكْ جزمة مصنوعة حسب الشريعة الإسلامية». بدت غاضبة هذه المرّة. أسرعتْ في لبسها وخرجتْ.

أبا الزهراء قد جاوزتُ قدري
بمدحك بيد أن لي انتسابا

...
...

عرفتُ في المعهد أنَّ أبا الزهراء هو أحد ألقاب النبي محمّد نسبة لابنته فاطمة الزهراء. تمتدح أغنية أمّ كلثوم حبيباً يحمل اللقب نفسه. ما هدف سهيل من إهدائها إليّ؟

التعامل في المعهد كان جادّاً. لا تجرؤ واحدة على المزاح أو الضحك. لينا وحدها بدت كأنّها وُلدت من نكتة، أو كأنّها تعيش في بيت من الضحك. ما إن يخلو الفصل من المُدرِّسة حتى ترفع صوتها متوجّهة إلى زميلتنا التي اختيرت رئيسة للفصل «يا شيخة نهلا. هل يَجُوز أحكي لكِنْ نكتة أو مَا؟». في المرّة الأولى صمتت نهلا لحظة، ثُمّ قالت «يجوز... يجوز، لكن على شرط أن تكون على الطريقة الإسلامية». وإذْ ضجّت أصوات الطالبات بالضحك على الرد الجاد، فإنَّ رئيستنا لم تعد تجيب إذا سمعت السؤال نفسه. بعض الطالبات صرن يقمن بهذا الدور، فما إن تبدأ لينا بالقول «هل يَجُوز...؟» حتى ترتفع الأصوات «يجوز يجوز لكِنْ...».

في هذه الحدود كنّا نضحك، حتى إنَّنا لم نسمع أيّة نكتة من لينا. تكتفي بقول سؤالها المعتاد بطريقة تثير فينا الضحك.

«هل تَعْرِفِنْ عن إيشْ كنت سأسأل لمّا تقولين: يجوز يجوز؟» تضيف، لتكتم ضحكات معظمهن، حين يشعرن بأنَّ هناك ما

يستدعي الحياء في ما وراء كلامها.

«إذا واحدة قلّلت أدبها فسأكتب اسمها إلى الأستاذة» ظلت نهلا تردّد، لكنّها لم تفعل ذلك سوى مرّة واحدة، حين اشتكت لدى مُدرّسة تلاوة القرآن أنّ طالبات الفصل كُنّ يردن قول نكتة ليضحكن.

«إذاً هكذا... أوّلاً كان عندهن رغبة لقول نكتة. والمسألة الثانية أنّهن سيضحكن بعد سماعهن للنكتة» قالت المدرّسة، وهي تحاول ترتيب حيثيات ما ستصدره من حُكم ضد من فكّرن في قول نكتة والضحك، إلاّ أنّ واحدة من إدارة المعهد جاءت في اللحظة نفسها لتعطّل صدور حُكمها. لقد أبلغتها بأنّهم اتصلوا من بيتهم وطلبوا أن تجيء سريعاً لأنّ أُمّها مريضة. حينها صرخت تولول وهي تغادر الفصل، كأنّها تيقّنت أنّ أمّها قد ماتت.

...

...

مدحتُ المالكين فزدت قدراً

وحين مدحتك اقتدت السحابا

لم أعد أتظاهر بأداء الصلاة، بل صرت أصلّي. في البداية بقيت أفتقد أجواء مدرستي الأولى كطابور الصباح والتمارين الرياضية، شدّ الجسم أثناء الاستماع إلى نشيد السلام الوطني في الطابور، وخلال سماع الأناشيد الوطنية التي ترافق خطواتنا المنظّمة من ساحة المدرسة إلى داخل الفصل، لكنّني سرعان ما سمعت أنّ ما أفتقده مخالف للشريعة المحمّدية.

«هذا سلوك الجاهلية الجديدة. يخالف تفصيلاً وكلاً الشريعة الإسلامية» سمعتُ هذا القول في الكثير من جوانب الحياة. كانت الفتوى جاهزة، تحيط بي من كلّ جانب، تردّ على أيّ سؤال، طُرح أو لم يُطرح، عن: خروج المرأة بدون محرم، البطء والسرعة في المشي، قراءة داروين والروايات. معظم الفتاوى تناولت مواضيع محرجة بالنسبة لمن كانت حينها بعمري، كالسؤال عن الحكم الشرعي في: تناول المرأة للخيار والموز وطباختها للباذنجان والكوسة، التعرّي أثناء النوم، الكلام بين الرجال والنساء، مصافحة المرأة للرجل، احتضان المرأة لامرأة أخرى، إيتاء المرأة الحائض من الخلف، مشاهدة نكاح الدجاج والديوك والكلاب. في كلّ حال ومع أيّ شيء كانت الفتوى مطلوبة: هل هذا حسب الشريعة الإسلامية، يجوز أم لا يجوز؟ حتى في الضحك والبكاء.

تقبّلت على مهل مسألة الضحك وحدوده الشرعية، لكنّني لم أستطع أفهم ألاّ أكون حُرّة في البكاء. بقيتُ أبحث بين الكتب عن مسوّغ شرعي يعطيني الحق في البكاء، بدون حدود وبأي شكل ووقتما أشاء. أمضيت أيّاماً وأشهراً كثيرة في البحث، جمعتُ آراءً وقارنت بينها، اجتهدت واستنتجت. أخيراً أردتُ أن أبكي إذْ تيقّنتُ أنّ لي حقاً فيه، إلاّ أنّني لم أستطع ذلك. لقد اكتشفت أنّني صرت خالية منه، بل أدركتُ، تماماً، أنّني لم أعد أعرف ما البكاء.

مرّت ثلاث سنوات وأنا أشعر بأنّني في حال جهاد لا يتوقّف. امتلأت بقضايا إسلامية كبرى: الجهاد في أفغانستان والشيشان ضد الصليبيين والشيوعيين الكفَرة، محاربة اليهود في فلسطين والكفّار في أيّ مكان.

في سنتي الأخيرة، في المعهد، لم تعد علاقتي بلولا كما كانت. سمعتني أدعو الله في الصلاة أن يوفقني لأذهب إلى أفغانستان وفلسطين للجهاد وأن يهبني الشهادة.

«إيشْ من جهاد؟ ذُوقي طعم الحياة أوَّلاً... خَلّي من يَرْكَبِك... الزِّيطْ ميطْ هو جهاد» قالت قبل أن أكمل دعائي.

«ما تقولي يا عاصية الله. ما بك تكفُري هكذا؟»

«فين عصيت الله... إيش الله يَكْرَه لو استمتعنا بحياتنا؟»

«نستمتع بَسْ بالحلال».

«بالحلال بالحلال... خَلّي أحد يَرْكَبِك بالحلال... بعدها ما تسألِيْ على جهاد ولا على شِيْ... ستتمنّيْ أن تستشهدي تحته وأنتِ تتلقّيْ طعناته».

راحت تضحك و لم يوقفها غضبي: «بدلاً من الاستشهاد بطعنات كافر في معركة بأفغانستان أو الشيشان أو فلسطين استشهدي هَانَا. صارعي أيّ كافر وخَلِّيه يطعَنك لمّا يهلِكك».

كانت لولا قد عادت من رحلة إلى لندن. لم تحدّثني عنها كما كانت تفعل من قبل، مع كل رحلة لها.

صارت تعمل حساباً لردود فعلي إذا ما تحدّثت عن مغامراتها الجنسية وإعجابها بأوروبا.

أتذكّر كيف ظلت عدّة شهور تحدثني منبهرة عن زيارتها إلى ألمانيا:

«هناك ناس ناس... مُشْ مثل هَوْلاء».

«لِلْمَه رجعتِ؟ كنتِ ابقيْ هاناك».

«ما شَفْعَلْ هاناك؟ القِحب كثيرات».

«ما حصَّلْتيش شُغلانة ثانية إلاّ هذي؟»

«أنت عارفة. هذي المهنة مُفضّلة عندي».

لم تكن لولا، في الحقيقة، قحبة تماماً، فممارساتها محدودة ولا تتجاوز علاقاتها إلى غير مديرها إلاّ ما ندر. مع هذا كانت تفضّل أن تصف نفسها هكذا.

حين سافرت إلى النرويج، أعدنا الحديث نفسه، أمّا سفرها إلى باريس فلم يكن له مثيل. لقد قلب حياتها، تماماً، أو لنقل حدّد الوجهة الكلّية لحياتها التي بدأت تمضي فيها مبكراً.

...

قبل شهور من دخولي المعهد للدراسة فيه، أخذتني لولا إلى مقر الشركة التي تعمل فيها. قالت إنّها تعمل في مجال الاستيراد والتصدير. كانت هناك ثلاث بنات، جالسات في مكاتب متجاورة، يثرثرن ويضحكن بعد كلّ كلمة تقولها إحداهن. سحبتني لولا إلى غرفة مجاورة.

«ما بِكْ؟ اجلسي عرِّفينا على أختك» نادت إحداهن.

«ما اشتيش أفسد أختي بأخلاقكن» أجابتها لولا وهي تضحك.

«يَوْ يَوْ يَوْ والأخلاق. مُشْ كفاية إنّها عائشة مَعاك. وإلاّ أنتِ ما تروّحيش البيت؟». وواصلن الضحك.

«ما بِشْ موظفين رِجَال؟» سألتُ.

«كيف ما بِشْ؟ في المدير. وفي محاسب يجيء بالأسبوع يوم. وفي شخص يقوم بالمعاملات الخارجية والعلاقات وإنجاز الأعمال، وهو

يجيء المكتب كل يوم بعد الساعة الثالثة عصراً».

«وهنْ ما يَعْمَلنْ؟».

«كما تشوفي، أحياناً نطبع أوراق أو رسائل. واحدة لديها خبرة في ترجمة الرسائل وطباعتها بالإنكليزية، والثانية هي سكرتيرة المكتب، تسجِّل الصادر والوارد وتُعد الأوراق إلى أن يجيء المحاسب، وهي اللي تفتح وتقفل المكتب في فترة الصباح. الثالثة فرّاشة تنظف المكتب وتعد القهوة والشاهي للمدير».

«وأنتِ ما عملك؟».

«أَنِيْ عادني أتدرَّب. عاد لي ثمانية أشهر بَسْ».

ردّت على التلفون الذي كان على مكتبها «حاضر سأجيء... حاضر» ظلّت تردِّد وهي تضحك.

حين أقفلت السمّاعة، قالت: «وزِيدْ أرد على التلفون حق المدير. حق المدير بَسْ. لأنَّه مشبوك من خَطّين. خط في مكتبه وخط عندي... ما قُلتْ لِكْشْ؟ أني أتدرَّب عشان أوقع السكرتيرة الخاصّة للمدير. السكرتيرة السابقة اشْتَكون سكرتيرة عامة للمكتب».

أوصلتني لولا يومها إلى البيت. قالت إنَّ المدير هو الذي اتصل إليها وطلب منها أن تعود للدوام بعد الثالثة عصراً، لأنَّ التي عليها الدور مشغولة.

«كلّ واحدة منّا عليها دوام بعد الظهر، عشرة أيّام متواصلة في الشهر. أوه لو تشوفي على شُغل يكون في العصر. أوه المدير يشغِّلني بشكل ما تتصوَّري».

«الله يعينك».

«لا، هو مُش شُغل مُتعِب. هو شغل لذيذ حَالِيْ».

كانت لولا تحرص على شراء ملابس نوم شفّافة، تخفيها مع العطور في حقيبتها المقفلة. أبي يسعد كثيراً حين تعطيه كل شهر مبلغاً من راتبها. ظل يوافق عبد الرقيب في كلّ شيء سوى منعه لها من العمل والسفر. في ما بعد باحت لي عن شغلها الإضافي الذي تقوم به عصراً: «أَني ما يشغّلني المدير في العصر إلاّ في العشرة الأيّام اللي تسبق موعد دورتي الشهرية»

«أنتِ قلتِ إنَّ الخمس الأيّام اللي بعد الدورة الشهرية هي آمنة. لا تَحمِل فيها المرأة إذا...»

«صح، هي أكيد عشرة أيّام آمنة تبدأ من اليوم الأوّل اللي تجيء فيه الدورة. لكن المدير يعجبه الشغل في فترة الأمان الثانية، وأنا أيضاً تعجبني هذي الفترة لأنّي أكون مُهيّجة أكثر من الفترة الأولى».

«ها... هو يُريّحك؟»

«أيوه كذا. فهمتِ؟»

«والباقيات يعمل معهن هكذا؟»

«هو يحلف لي أنَّ هذا لا يتم إلاّ معي. أمّا هنّ فيجئن حسب دورهن من أجل العمل».

«وهِنْ إيش يقولِنْ؟»

«ما يعترِفنش ولا أني أعترف لهن. كلّ ما يجمع بيننا هو مشاهدة الأفلام الثقافية وصلاة الظهر».

«الأفلام الثقافية قد عَرَفتْ ما هي. لكن ما حكاية صلاة الظهر؟»

«حسب تعليمات المدير، قبل أذان صلاة الظهر بخمس دقائق نفتح

شريط قرآن بصوت عبد الباسط عبد الصمد، ونعلّي الصوت حتى يسمعه كلّ من في العمارة. حين نسمع أصوات المؤذنين تتداخل في الوقت نفسه من المساجد الثلاثة القريبة من العمارة نفرش السجادة على صالة المكتب ونقوم نصلّي خلف سميرة اللي تؤم بنا».

«وإذا ما أمّتشْ بَكِنْ سميرة، تقومي أنتِ؟»

مضت في ضحكة طويلة قبل أن تقول: «يُوه ما أتصورش نفسي إمام. أنتِ تقصُديْ إذا جتها الدورة الشهرية. لا، ما بِشْ مشكلة. هو مجرّد مظهر أمام صاحب العمارة المطوِّع اللي هو أبو زوجة المدير».

«مانش فاهمة. ما الفائدة، حتى ولو مجرّد مظهر؟»

«يا مفعوصة صاحب البيت غني والمدير مستفيد. إذا شافنا هكذا سيأمن أنّنا لن نغوي زوج ابنته ونفسده، لأنّنا نساء صالحات نؤدّي الصلاة بأوقاتها».

«وإذا هو اللي يَغْويْكِنْ؟»

«هم يقولوْ إنَّ المرأة شيطان، هي اللي تغوي الرجّال. وإنّه من غيرها شِبقَى طاهر».

...

...

منذ أن قرّر المدير إغلاق الشركة وفتح مكتب آخر تابع للحملة العالمية من أجل الحفاظ على الحيوانات المهدّدة بالانقراض، صار كثير الأسفار إلى الخارج، لا يمضي شهر إلاّ وقد سافر مرّتين أو أكثر ليشارك في ندوة أو ورشة أو يلقي محاضرة. قالت لولا إنّه،

حين أخذها في زياراته الثلاث إلى نيويورك وبرلين ولندن، كان يحرّضها، منذ أن تدلف إلى غرفة الفندق، على استبدال ملابسها المحجّبة لمفاتنها بأخرى تظهرها، لتظل متبرّجة حتى وقت تجهيز حقيبة العودة.

«حين وافق على ترشيحي باسم المكتب للدورة الخاصة بحقوق الحيوان في باريس لمدّة شهر كنتُ أكثر حرّية لأنّه ليس معي. ما إن صعدت الطائرة حتى دخلت الحمّام وغيّرتُ ملابسي. تخلّصت من العباءة والخمار واللثمة ولبست تنّورة قصيرة، إلى الركبة، مع قميص شفّاف».

ليس هذا هو الأهم في زيارة لولا إلى باريس.

في متحف اللوفر همست لها زميلتها الجزائرية، المشاركة في الدورة، أنّ الرجل الذي يقف متأملاً لوحة الموناليزا رسّام مشهور، باع قبل أيّام إحدى لوحاته بأعلى سعر تشهده مزادات اللوحات منذ أربع سنوات.

...

...

حين قرّرت لولا أن تسجّل رحلتها وتجربتها هذه في شريط كاسيت بحضوري شعرتُ أنّها أرادت أن تسخر من عبد الرقيب الذي كان قد بدأ يسجّل خطبه على كاسيتات، بلغة عربيّة فصيحة، ليختبر قدرته كخطيب. لم تقل لي هي ذلك. ربّما، هناك أمر آخر. لم أسألها، وبقيت أسمعها أثناء التسجيل:

...

...

«أردت التعرّف إليه. لا أدري لماذا؟ [أتذكّر وجه لولا وهي تقول هذه العبارة، كأنّها أمامي الآن وأنا أكتب ما سجّلته] اقتربتُ وقلت له بالإنكليزية: هل تعجبك الموناليزا؟ قال: يعجبني كلّ ما هو عار. قلت له: لكنّ الموناليزا ليست عارية. قال: بل هي عارية، ألم تري ذلك؟ قلتُ: لا. بعد لحظة صمت ظلت فيها عيوننا شاخصة نحو اللوحة، التفت إليّ. تفحّصني بنظراته، وفجأة سألني: هل تحبّين الطماطم؟ أجبته: نعم، إذا كان مسحوقاً مع بسباس حار. قال: أريد أن أرسمك مع الطماطم. ارتبكت في البداية، لكنّني سرعان ما عدت إلى توازني: أوافق على شرط أن لا ترسم ملامح وجهي الحقيقية. لم يوافق: الفنّ يتعارض مع أيّ شروط ولا يبقى جديراً بحمل صفة الفن إذا أنتج بناءً على شروط.

دارت هواجس سريعة في بالي وقتها: ماذا لو بيّن وجهي ووصلت لوحته أو صورتها إلى صنعاء ورآها أبي؟ توتّرت وارتبكت... فنّان شهير يرسمني. إنّها فرصة. وجدتني في حال هيجان أو غضب أو لحظة شَجاعة. سمِّيها ما شئتِ. موافقة موافقة، قلت له بطريقة بعثت ابتسامة خفيفة، على شفتيه. ابتسامة، تستطيعين أن تقولي إنّها ساخرة. بالأصح، هي قريبة من السخرية. رأيتُ فيها أشياء أخرى غير السخرية، لا أعرف ما هي بالضبط. يمكن أن تكون شفقة. ربّما أدرك السبب الذي تركني أشترط عليه في البداية أن لا يرسم ملامحي

بوضوح. ربّما أحسّ بي وأنا أتراجع عن شرطي سريعاً، في السرعة نفسها التي كنت قد حدّدته فيها.

[صوتي: بعدها ما حصل؟]

اتفقنا أن أذهب في الثامنة مساءً إلى مرسمه، في منزله. كتب أندرو، وهذا هو اسمه، عنوانه على راحة يدي اليسرى بخط أحمر غامق».

لم تكن سريعة، في حديثها معي، كما كانت سريعة مع الرسّام. بدا لي أنَّ لولا تخاف أو تخشى من رد فعلي لو قالت لي الحقيقة. تلهفت إلى سماع التفاصيل. اكتفت بالقول إنَّها راحت إليه، واتفقت معه على أن تجيء إلى باريس للعمل معه كموديل، ثلاثة أشهر فقط، تحديداً من 21 يونيو إلى 21 سبتمبر، وخلال ثلاث سنوات. وأصرَّت حينها على أن توقف التسجيل وتواصله في جلسة أخرى.

علاقتها بمديرها السابق صارت لا تتجاوز الصداقة. بدت، بعد هذه الرحلة، كأنَّها استغنت عنه مالياً. مع أنَّها بقيت تقول لأبي إنَّ المكتب دفع لها مكافآت أكثر مما سبق. كان هذا القول، بالنسبة له، يعني تأمين قيمة القات لمدة شهر.

حين أصررتُ على أن تستكمل حديثها عن الفنّان الفرنسي ورسمه لها، جاءت بالمسجِّلة، وقلبت وجه الشريط، مع أنَّ الوجه الأوَّل لم يكمل، وواصلت:

«هو فنّان غريب. حين رحتُ إليه طلب منّي بدون مقدّمات أن أخلس ثيابي. هكذا، ما كنتُ أخرج من ارتباك حتى أقع في آخر. قال إنَّه لأوَّل مرّة يرى امرأة شرقيّة وهي عارية، على الطبيعة وليس في لوحات. أخذني بعدها إلى الحمّام وطلب منّي أن استلقي في البانيو.

... وأنا أراه يفتح علباً كبيرة ويسكب منها فوقي سائلاً أحمر ... قال: مسحوق طماطم ولكن بدون بسباس. قلت: ظننتُ أنك تريد أن ترسمني مع حبَّات الطماطم، لا مع مسحوقها. تعرَّى تماماً. تهيّأ لي أنَّه في الخمسين من عمره، أو تجاوزها قليلاً. دخل إلى البانيو. ووضع قدميه على جانبي فخذي وقرفص، حتى ظننت أنَّه سيضاجعني. لكنَّه راح يدلكني بالمسحوق وكأنَّه يريده أن يلتصق بي، أو أن تلتصق حمرته بجلدي. بدأ بوضع راحتي يديه على حلمتي نهدي، ظلّ يمسحهما ببطء وخفّة. ثم مضى يدلك رقبتي ووجهي. عاد إلى الأسفل ماراً بكتفيّ ويديّ وصدري وبطني وصولاً إلى وسطي وفخذيّ وما بينهما. بالخفّة نفسها مضى إلى ركبتيّ وساقيّ وراحتي قدميّ وأصابعهما. عاد من جديد إلى حلمتي نهدي، وظهر لي أنَّه يدلك، هذه المرّة، بخفّة أقل وببطء أشد، إذ راح يضغط عليهما، وهو يمسحهما بشكل دائري... ماذا أقول لكِ؟ لو كان في قهوة...؟ أريد أن أشرب فنجان قهوة... لا أخفي عليكِ أنَّني خفت أن يخنقني حين ضغط على رقبتي، بأصابعه العشرة، أثناء تدليكه لها. أثارني في المرّة الثانية ضغطه على شفريّ وبظري بأصابعه وراحة يده. زدتُ التياعاً، وهو يمرِّر راحتيه بسرعة أكثر وبشدّة أقوى. أحسستُ كأنَّني أعواد ثقاب تقوم يد بإشعالها عضواً عضواً. صرختُ من اللوعة. حاولتُ أن أتجه إليه بجذعي، أن أضم وسطه، لكنّه بقي سريع الحركة في تقلّبه وتدليكه. طلب منّي أن أنهض، ثم راح ينشِّف جسمي بثلاث مناشف حمراء. أخذني بعدها إلى غرفة مستطيلة بدت أنّها المكان الذي يرسم فيه. أجلسني على طاولة منخفضة مغطاة بفرش وملايات بيضاء.

مسك بالفرشاة، لطّخها بالألوان وبدأ يرسم. ظهر متوتّراً وهو يواصل ضربات فرشته على اللوحة المثبتة أمامه. لم يكتف بهذا...».

...

...

أوقفت المُسَجِّلة، بعد لحظة الصمت التي تبدو مُسجَّلة في الشريط، وطلبت منّي أن أعمل لها قهوة ثقيلة. لم أرفض. كان ذلك ضرورياً لتكمل حديثها.

بدت القصّة طويلة. عادت إليها لولا بعد فنجان من القهوة، شربته في لحظات تواجهت عيناي بعينيها بنظرات متقاطعة وخاطفة.

...

...

«فجأة أنزل اللوحة الأولى ليرفع أخرى. عدّل جلستي على الطاولة ومدّ ذراعي إلى الخلف لينصبهما كدعامتين، أنحى ظهري إليهما فيما بقيت الكتفان مشدودتين لتحفظا التوازن، عطف ساقيّ إلى الفخذين، وباعد بينهما ليصبح وسطي واضحاً، بل ومفتوحاً على اتساعه. بدا لي أنّه راح يرسم كُسّي. ارتبكت وأنا أستسلم لهواجسي، ماذا لو انتشرت هذه اللوحة، ووصلت إلى اليمن ورآها أبي، ماذا سيكون موقفه وهو يرى كُس ابنته وقد أصبح مشهوراً؟ ما يُرسم لم يكن واضحا تماماً؛ لقد بدا غامضاً إلى حد ما، بسبب خطوطه المتشعبة على هيئة بيت عنكبوت مغطاة بفقاقيع صابون، وألوانه المتفجّرة كبقع

دم ومَني وزيت محروق. هذا التجريد قد لا يكون مفهوماً لدى أبي لكنّه مفهوم عندي؛ ألا يكفي تفحّص عينيه بين فخذيّ طوال تشكيله للّوحة لأعرف أنَّ الفتحة التي تملأ مساحتها كلحظة انفجار بركاني هي بالضبط كُسّي؟ آه... أتدري ما عمل؟ كان قد مدّ أصابعه كثيراً ليباعد بين المشفرين، حدَّق بينهما كثيراً، وتتبَّع جذر بظري الذي ظهر لي في اللوحة على شكل جبل من بركان.

لم تكتمل اللوحة إلى هذا الحد. ظللت أتلوّى بجسمي، منقِّلة عينيّ بين ضربات فرشته على اللوحة وبين جسمه العاري؛ بالأصح رؤية اهتزازات عضوه الذي بقي منتصباً ومتوتِّراً كالفرشاة... هل يمكن أن أنسى في يوم ما حال اللحظة تلك؟ بعدها لم يطلب منّي أن أبقى على وضع محدّد. بقيت وجلة، مرتعشة، أرغب بأن أقفز إليه، أنحيه على ظهره وأمسك عضوه، أركب فوقه، أهرسه هرساً. ماذا عَمل؟ أخرج من تحت الطاولة تنك صلصة كبير وجلس إلى جواري. راح يطلي جسمي مجدّداً، مع أنّني حسبته قد انتهى. تململتُ جالسة من اللوعة حين مرّر الصلصة على رقبتي ونهديّ وبين فخذيّ. كنتُ مهيَّجة. وجدتني بدون مقدّمات أغمس يدي اليمنى في تنك الصلصة وأمسح بها على عضوه المنتصب. بدا أنّه يرغب في هذا إذ أدار وسطه ليواجهني. زاد هياجي. ضغطت بيدي على عضوه، بشدّة، ووجّهت وسطي نحوه، جرّيته حتى وضعت رأسه فوق البظر. كنتُ أظن أنّني، بهذه الخطوة، أساعده على إكمال اللوحة؛ لكن هذا لم يحدث، وقام فجأة يوجّه صفعات يديه على رأسي.

[صوتي: قبّحك الله... عليك اللعنة.

صوت لولا: إيش اتفقنا... إنَّ ما بِشْ زعل وإلاَّ لا؟]

... ...

... ...»

لم أعد أرغب في مثل هذه الأحاديث. لقد صارت تثيرني إلى حد عجزت عنده عن إخفاء لزوجة السائل الذي ينسكب أثناءها بين فخذيّ، حتى إنَّ لولا كانت تقول لي بعد كلّ حديث مشابه، وكأنَّها واثقة ممّا أحدثته: «قومي هيّا... روحي غسّليها بالحمّام».

هذه القصّة لم تنته بشكل اعتيادي وأبقت فيَّ سؤالاً لا أستطيع تركه، مع هذا صرت أغالب نفسي عن قوله.

مرّت لحظات، ظننتُ بعدها أنَّ لولا قد شفيت من تعذيب رغبتي المخفيّة في معرفة نهاية ما جرى لها مع أندرو.

أوقفتُ التسجيل، وذهبت لتأتي بشريط ثان.

كان عندها إحساس، أو هاجس خوف، بأنَّ الشريط سيكمل قبل أن تنهي حديثها، مع أنَّ جزءاً كبيراً منه ظل فارغاً.

شريط كاسيت خاص (2)

...

«اكتشف أنّني عذراء. صُدم بالقفل المُحكم على باب كُسّي...

تصوّري لم يكلّف نفسه دفع مفتاحه بقوّة في القفل ليفتحه ويدخل.

[صوتي: عذراء؟! ما تَقولي... إيش مِنْ عذراء... إيش من كلام؟]

أيوه عذراء يا أختي المسلمة. أو تكوني قد شكّيتِ في يوم من الأيّام بانحراف أختك إلى مهاوي الرذيلة والأخلاق الفاسدة؟ معاذ الله... معاذ الله... معقول أعصي ربّي ولا أخاف عقابه وجحيمه... أنا القانتة المصونة ربّة الطهر والعفاف... ما شاء الله... ما شاء الله؟

[صوتي: بدون كلام كثير وسخرية بالدين قُولي لي ما جرى؟]

أنتِ لا تصدّقي أنّ بالإمكان إعادة العذرية إلى البنت إذا فقدتها؟ اسمعي... قبل أن يوافق المدير على سفري إلى باريس اشترط أن أذهب إلى الدكتورة الروسية ناتاشا. فوجئت في البداية أنّه يعرفها، و لم أتأكّد من مقصده، إلاّ حين أخذني بسيارته إلى أمام العمارة التي فيها عيادتها. انتظرني هناك حتى عدت إليه بنت بنوت من جديد. سافرتُ على أن أعود إليه مخيّطة مُقفلة، كَذهْ كما خلقني الله.

[صوتي: ما تذكريش الله على لسانك... لعنة الله عليك.

صوت لولا: والله... عادش تلعنيني... خلاص... لِلْمَه عا شَكْمِلْ كلامي؟

... ...

... ...»

ظننت حينها أنّ القصة انتهت، أو أنّها صارت واضحة على الأقل. لم أرجُها أن تواصل.

بعد هذه اللحظات من الصمت، المُسَجَّلة في الشريط، أيضاً، عادت

إلى الحديث من ذات نفسها:

«حين هبطت بنا الطائرة في مطار جدّة ترانزيت، وهي في طريقها إلى باريس، بقيت في إغفاءة لم أصحُ منها إلاّ على صوت المضيفة وهي تطلب منّي أن أعتدل في جسمي النائم لكي لا أكسر رقبتي. حينها انتبهت لوجود راكب جديد احتل المقعد الذي كان خالياً في جواري. لا أعرف كيف حفّزه ظنّه ليسألني: من أي مكان في اليمن أنتِ؟ مع أنّني كنت قد خلعت العباءة في حمّام الطائرة. هل لأن الطائرة قادمة من صنعاء؟

تأسّف لإزعاجي وعرّفني بنفسه: أحمد، سعودي يدرس برمجيات الكمبيوتر في الولايات المتحدة وسيذهب إلى زيارة أخته التي تقيم في باريس مع زوجها الإسباني. تحدّثنا عن كلّ شيء. ارتحت لأفكاره عن حرّية المرأة وحقوقها الإنسانية، لكنّه لم يرقني وهو يصرّ على ضرورة أن تحافظ البنت على شرفها المتمثل بالبكارة. قال إنّه لا يمكن أن يتزوّج بنتاً أو يحبّها، أو حتّى يتحدّث معها، إذا كانت قد فقدت شرفها. قلت له ضاحكة: وما أدراك أنّني عذراء لتتحدث معي؟ قال: شكلك يوحي بالثقة ولو كنتِ سافرة.

بعد نقاشات وضحكات لم يتردّد أن يعلن رغبته في الزواج منّي. ظننته يمزح، فقلت له: مهري غالي، ولن تستطيع دفعه. أكّد لي رغبته وكشف عن هويّة عائلته الغنيّة ذات الأصول الحضرمية، وقدرته على دفع أيّ شيء. أعطاني عنوان أخته في باريس و لم نتّفق على لقاء.

حين خرجتُ من منزل أندرو وهو يصيح: مريضة... تافهة... مُخيّطة؛ شعرتُ أنّني خسرت اتفاقي معه لأعمل موديلاً في مرسمه،

بسبب عذريتي المزيّفة. فكّرتُ بالشاب السعودي: لماذا لا أتزوّجه، ألستُ عذراء؟ رحتُ إليه لأخبره أنّني قبلت عرضه بشرط أن نبقى فترة قبل الزواج لنتعارف أكثر. وافق وعزمني على عشاء، ثم عدنا إلى بيت أخته. هناك عمل بكلّ جهده لأوافق على أن أهبه ما يعتبره شرفي. تظاهرتُ بالرّفض وبقي يؤكّد لي أنّه سيتزوّجني واستعدّ لتقديم أي ضمانات من أجل ذلك. أتدرين ماذا عمل بعد أن استسلمت له وراح يستعرض قدرته على اختراق خيوط الشرف بألم لم أنسه؟ مباشرة أخرج من محفظته رزمة من المال وناولني إيّاها دون أن يقول شيئاً. استغربت وألححت عليه بالسؤال: لماذا هذا المال؟ صرخ فجأة: «هذا ثمن شرفك». وأضاف أنّه لا يمكن أن يتزوّج ببنت ترضى بأن تهب شرفها لأيّ رجل. استغربت من مواصلة صراخه مع أنّني لم اقل له شيئاً، لم أذكّره بأنّه وعدني بالزواج وأنني وثقت بقوله. أوضح بغضب أنّه كان يختبرني، وأعلن حكمته: التي تهب شرفها قبل الزواج لا أمان ولا ثقة بها بعده.

[صوتي: خلاصة الموضوع ماذا جرى؟]

رحتُ بعد أسبوع إلى الفنّان وكنت قد شفيت من الجراح التي أحدثها ممزّق الخيوط. أردت أن أخبره بأنّني لم أعد عذراء. لكنّه للأسف رفض أن يتفهّمني واكتفى بإعطائي مبلغاً قال إنّه تعويض لي على فسخ عقد العمل بيني وبينه. قلت له: إنّ موضوع العذرية لم يكن من بين بنود الاتفاق. قال إنّني قد عكّرت مزاجه بخيوطها التي آلمت عضوه، فلا يستطيع أن يراني مجدّداً دون أن يفكّر بكُسّي المخيَّط.

[صوتي: مسكينة خسرتِ زوجاً محتملاً وعملاً مع فنّان مشهور.

صوت لولا: مُشْ هذا بَسْ. أيضاً، خسرت علاقتي الحميمة بالمدير حين اكتشف أنّني لم أعد بنت بنوت كما خلقتني ناتاشا.

صوتي صارخاً: قبّحك الله... ما هذا الشِّرك؟ لا تشبِّهي الفاجرة الكافرة بالخالق عزَّ وجل]

... ...

... ...»

الوجه الأوّل من شريط الأغنية (إعادة)

...

سلوا قلبي غداة سلا وتابا
لعلّ على الجمال له عتابا

ما إن قُبلت للدراسة في الجامعة الإسلامية حتى صار عبد الرقيب يناديني بالشيخة ليتبعه في ذلك كلّ من في البيت. بدا لي، مع هذا اللقب، أنّني صرت محلّ ثقة كلّ أسرتي. لم تعد مسألة خروجي من البيت ورجوعي إليه تخص أحداً غيري. لقد بدأت لأوّل مرّة أشعر بأنّني حُرّة، ولكن إلى حدّ ما. فحرّيتي كانت مقيّدة بالشريعة الإسلامية التي درستها وحفظتها وصارت جزءاً من حياتي إن لم تكن حياتي كلّها.

في الجامعة، لم نكن نهتم بحمل اللقب المشائخي، مع أنّ شيخات الجامعة المدرّسات كُنّ دائماً ما يتعاملن معنا كطالبات مشيخة دينية. أمة المحبّ كانت الطالبة الوحيدة التي تحمل صفة الشيخة إلى جانب اسمها. عُرفت منذ الأيّام الأولى لدراستنا في السنة الأولى بسعة علومها الدينية، وحفظها القرآن الكريم كاملاً، ومعرفتها بتجويده وتفسيره. وضاعف حفظها أكثر من مئتي حديث نبوي إعجاب الشيخات والشيوخ بها.

كان الأساتذة الشيوخ يلقنوننا محاضراتهم عبر شاشة اتصال داخلية، لا

تظهر وجوههم وتكتفي بنقل الصوت، أو حركة يد الأستاذ وهي تكتب بعض الإيضاحات على السبورة. صرنا نعرف الأساتذة من أصواتهم أو أيديهم، بشكل أدقّ، من أشكال أصابعهم وطُرق حركاتها، وأساليب كتاباتها وكيفية ارتباط الأيدي بأكمام القمصان والأَردية، وقبل كلّ شيء أنواع الخواتم وأشكالها. إذا خذلنا الصوت وأربكتنا الأصابع ولم نستطع التعرّف إلى صاحبها، كانت زميلتنا فاتن سرعان ما تنقذنا، تكشف لنا اسمه إذا كان معروفاً أو تؤكّد اختلافه إذا كان جديداً.

«محسوبتكن الشيخة فاتن في خدمتكن» عادة ما تردّد هذا القول ضاحكة، وهي تعرف أنّه لا أحد غيرها يصفها بالشيخة. بدت لهذه الصفة هيبة لدى الطالبات، حرصن على أن لا تكون موضع سخرية.

باستثناء فاتن التي قالت مرّات كثيرة إنّها دخلت هذه الجامعة رغماً عنها، كانت الجدّية تبدو في سلوك معظم الطالبات. سعيدة، ربّما هي الأخرى، دخلت هذه الجامعة بدون رغبتها إلاّ أنّها، عكس فاتن، تظل طوال الوقت صامتة، حتى إنّها لا تلقي التحيّة أبداً، ولا تتحدّث إلاّ إذا سألتها إحدى الشيخات عن أمر ما.

...

...

ويُسألُ في الحوادث ذو صواب
فهل ترك الجمالُ له صوابا

وكنتُ إذا سألتُ القلب يوماً
تولّى الدمع عن قلبي الجوابا

في أحد الأيّام قال لنا أستاذ فقه السُنَّة إنَّ جهاز الإرسال الداخلي سيقتصر عمله على توصيل صوته إلينا، ولن ينقل شروحه وكتاباته على السبورة بسبب غياب الفني المختص بالتصوير والإرسال عبر الشاشة. أستاذ التربية الإسلامية حذا حذو سابقه لكنّه مع هذا أظهر مفاجأة لم تتوقعها واحدة منّا:

...

...

شريط مُسجّل بالتلفون النقّال (ثقافي جامعي)

ظننا أنَّ الأستاذ الشيخ سيواصل شرح درس الأسرة المسلمة الذي كان قد بدأه قبل أسبوع والمنشور في الملزمة المطبوعة، لكنّنا سرعان ما سمعنا تنويهه: «عندي رغبة أن لا ألتزم بما في ملزمة الدرس، وأن أتحدّث من القلب إلى القلب». لهذا أخرجنا أقلامنا ودفاترنا لنكتب ما سيقوله، باستثناء من سجّلن المحاضرة عبر أجهزة تلفوناتهن النقّالة. أعاد الأستاذ الشيخ التأكيد أنّ جهاز الإرسال لن ينقل إلينا عبر الشاشة سوى صوته، فقط، وزاد على الأستاذ السابق قوله: «حاولتُ أن أوجّه الكاميرا إلى السبّورة، لكنّني لم أستطع ضبط عدستها، فتركتها».

من المؤكّد أنّه لم يترك الكاميرا، على حالها السابقة، بل على الحال التي صارت فيها بعد محاولته استخدامها. فقد بقيت العدسة موجّهة إليه، وإن بطريقة غير ثابتة، أظهرت في البداية النصف الأسفل من

وجهه مع صدره بصورة غير مقصودة. أتاحت الكاميرا، يومها، للطالبات أن يشاهدن لأوّل مرّة صورة مقصوصة وغير مكتملة لأحد أساتذتهن الشيوخ، صورة تمتد من منتصف الأنف، أسفل العينين، إلى منتصف البطن الملاصق لحافة الطاولة.

يبدو شعر ذقنه ناعماً وخفيفاً في سواده، فيما يغطّي شاربه بلونه العسلي جانباً من شفته العليا، يتكشّف مع احمرار شفته السفلى أثناء اهتزازات فمه بالكلام.

«سأتحدّث اليوم عن أهم دعائم نجاح الزواج، وهو اللقاء بين الرجل والمرأة في فراش الزوجية، كما قرّره الله سبحانه وتعالى في كتابه الكريم وبيّنه نبيّه محمد صلّى الله عليه وسلم في سنّته المتّبعة. ونحن هنا ننطلق على أساس أنْ لا حياء في الدين، وجميعكن ستصبحن زوجات وأمّهات في المستقبل».

وأثارت «لا حياء في الدين» انتباه الطالبات، إذْ توقّعن أنّها تُمهّد لتناوله مواضيع حسّاسة.

استخدم لأوّل مرّة نون النسوة (جميعكن ستصبحن)، بينما كان في محاضراته يلحقنا إلى خطاب جمع المذكّر، فلا يوجّه إلينا حديثه إلاّ بمفردات: تعلمون، إليكم، عليكم، أحدّثكم... ...

إلى الأسفل، شيئاً فشيئاً، تهبط عدسة الكاميرا فتخفي عن الشاشة أجزاءً من وجه المحاضر.

أتذكّر، يومها: في البداية بدت شفتاه باحمرارهما جاذبتين لعيون الطالبات، ثم صارتا، مع الكلمات التي تخرج عبرهما، أكثر جاذبية:

«سأحدّثكن يا بناتي العزيزات حديثاً صادقاً، من القلب إلى القلب

راجياً أن يصل إلى قلوبكن العامرة بالإيمان وهَدي رسول الله صلّى الله عليه وسلّم».

كان واضحاً أنّه كرّر لفظة القلب مرّات كثيرة قبل أن يبدأ بموضوع محاضرته. بدأ الأستاذ الشيخ حديثه بالقول إنَّ الرسول أكّد على حق الخطيب أن يرى خطيبته قبل عقد النكاح؛ وإنّه قال: إن استطاع أن ينظر إلى ما يدعوه إلى نكاحها فليفعل؛ «أي النظر لأعضائها الخاصة، الخاصة جدّاً، لنرى إذا كانت هذه الأعضاء تثير فينا الشهوة، وتجذبنا إلى ما أحلّ الله لنا، فنتوكّل على الله ونعزم على عقد النكاح، أم أنّها ليست كذلك، وعلينا أن نتراجع والخير ما أختاره الله لنا» قال شارحاً.

مضبطات الكاميرا، بدت أنّها تراخت أكثر، إذْ انحدرت لتظهر شكلاً غير واضح: القضيب الخشبي المرئي ربّما هو إحدى القوائم الأمامية للطاولة، التي كان الشيخ الأستاذ يجلس على كُرسي خلفها، أمّا الستارة البيضاء المهتزّة فهي جزء من ثوبه المسدل على ركبتيه وساقيه.

«استوصى نبيّنا الكريم في حديث له النساء خيراً، وقال: إلاّ أن يأتين بفاحشة مبيّنة، فإن فعلن فاهجروهن في المضاجع، واضربوهن ضرباً غير مبرّح، فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا. والفاحشة هي عدم طاعة الزوج والقول السيّئ، وليست الزنا، كما يظن البعض، الذي عقوبته أشدّ من الضرب المبرّح. كما قال رسول الله: إذا دعا الرجل زوجته إلى فراشه فأبت، فبات غضبان، لعنتها الملائكة حتى تصبح».

ارتفع صوته، كما يبيّن التسجيل، وهو يقول الكلمات الأخيرة، لكنّه سيعيده بعدها إلى نبرته العادية المنخفضة:

«هذه هي آداب الإسلام، فالمرأة بطاعتها لزوجها تكسب ودّه وعطفه وحنانه، وقبل ذلك تكسب رضى الله».

يتوقّف ويتنحنح وكأنّه يستعدّ لكلام مهمّ: «كذلك... أعطى الإسلام للمرأة حقوقها الجنسية وأباح النبي لامرأة أن تطلب الطلاق بعد أن قالت إنَّ ما مع زوجها كهدبة الثوب، أي إنَّ عضوه رخو كالخرقة لا ينتصب. هكذا، من منطلق القواعد الإسلامية، تكون المعاشرة الزوجية مليئة بالإشباع العاطفي، يبوح كلّ واحد برغبته للآخر دون تحفّظ، فيتداعبان متجرّدين في مضجعهما من الملابس، فهنَّ لباس لهم وهم لباس لهنَّ، وقدوتنا رسول الله، فقد قال للذي استحى أن يرى أهله عورته: فإنّهم يرونه منّي وأراه منهم. فلا مانع من أن ينظر الزوج إلى عورة زوجه الآخر ويتحسّسها ويداعبها لتشتعل رغبتهما للقاء عاطفي حميم».

من الواضح أنَّ عدسة الكاميرا قد هبطت أكثر وصارت موجّهة تماماً إلى أسفل بطن الأستاذ وركبتيه. يده التي تضغط على ثوبه في ما بين فخذيه بانفعال وتوتر هي التي كشفت، يومها، ملامح الصورة لعيوننا وأسماعنا.

«رسول الله صلّى الله عليه وسلّم كان كثير التقبيل لزوجاته، في أيّ موضع من الجسد. وروي أنّه كان يقبّل بعض نسائه ثمّ يقوم للصلاة. وتؤكد الأحاديث النبويّة أنّه عليه الصلاة والسلام كان يمصّ لسان زوجته عائشة رضي الله عنها، وأنّه كان يضع فاه على موضع فمها في ما تأكله من اللحم».

لا أظنُّ أنّني الوحيدة التي كنت مرتبكة، مشغولة بين مشاهدة يد

أستاذنا الشيخ، وهي تواصل الضغط بتوتّر على ما انفتح في وسطه، وتدوين ما أسمعه على الدفتر. طريقة قوله البطيئة للكلمات، وكأنّه يتلذّذ في نطقه لها، أتاحت لي كتابة كلّ حرف قاله، فيما تميّزت اثنتان منّا بتسجيل المحاضرة على تلفونيهما النقّالين صوتاً وصورة.

«هناك إلى جانب القُبل والمداعبات ما يسمّى بالرفث، وهو الفحش من القول، تبوح به المرأة أثناء الجماع، داعية زوجها بغنج متهالك ومتكسّر لما ترغب به، فتهيّجه، فيردّ عليها بالمثل، ويقال إنّ خير النساء هي العرّابة التي تتحبّب إلى زوجها، كما قيل إنّ خيرهن الشخّارة والنخّارة أثناء الجماع. وأعطى الإسلام حرّية الوضع الجنسي للزوجين أثناء الجماع. وقد جرى خلاف بين المهاجرين من مكة والأنصار في المدينة؛ كان الأنصار، مثل يهود المدينة، لا يأتون النساء إلاّ على جنوبهنّ، فيما أهل قريش من المهاجرين كانوا يتلذذون ويستمتعون بأوضاع عدّة، مستلقيات ومقبلات ومدبرات، وحين تزوّج أحدهم بامرأة من الأنصار أراد أن يستمتع بها ويجبيها، كما تقول أمّ المؤمنين أم سلمة رضي الله عنها، وهي أن تضع المرأة يديها على الأرض، وتنكبّ على وجهها وتقوم على ركبتيها، فأبت إلا أن تسأل رسول الله، فنزل قول الله تعالى: نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنّى شئتم».

يتوقّف الأستاذ الشيخ عن الكلام، لكنّ يده لم تتوقف عن العبث في ما بين فخذيه.

باستثناء أمة المحب التي كانت مكبَّة تدوّن ما تسمع ولا ترفع رأسها، فإنّ عيون معظم الطالبات بقيت شاخصة إلى الصورة، لا

يلتفتن إلى الدفاتر إلاّ إذا كانت هناك معلومة وجدنها ضرورية، كاسم كتاب يتعلّق بالموضوع، كما سيُلاحظ في لقطة تالية. فاتن لم تأبه لتدوين حتى تلك الضروريات واكتفت بمشاهدة ما يبث.

يتنحنح، كأنّه تذكّر ما أراد قوله مجدّداً، أو أنّ ما يُسمع منه كان على الأرجح كشكشة ناتجة من إخراجه ورقة من جيبه، ليقرأ منها:

«هناك كتب كثيرة عالجت المسألة الجنسية في الإسلام، بعد كتاب الله جلّ وعلا وأحاديث النبي صلى الله عليه وسلّم وسنّته. وقد قرأت الأسبوع الماضي كتاباً بعنوان **الجنس في ضوء الإسلام** للشيخ أحمد أبو المعاطي، وهو ما شجّعني على أن أتحدّث إليكن في هذا الموضوع. وبما أنّني قد وصلت إلى تناول الأوضاع الجنسية فسأنوّه بدعوة مؤلف هذا الكتاب إلى حرّية الأوضاع، وبأي شكل كان، إذا لبّت حاجة الطرفين واستمتاعهما. أشار المؤلف إلى وضعيتين، نقلهما من كتب أخرى، سأذكرهما لكنّ لفائدتهما في الاستمتاع ولمعالجتهما مشاكل جنسية قد تواجه الكثيرين والكثيرات، الأولى هي أن يستلقي الرجل على ظهره ويعطف ساقيه إلى الأعلى، ويباعد بين فخذيه قليلا، فتعتليه الزوجة كالفارسة فوق الحصان، وهذه الوضعية من الوضعيات المرغوبة للزوجة، لأنّها تكفل لها حرّية الحركة على المواضع المثيرة لها، والتي تصل بها إلى قمّة لذّتها سريعاً، ودون جهد كبير من الزوج، فإذا قارب الإنزال قلبها واعتلاها وتكون هي تحته. أمّا الوضعية الثانية، فتفيد بأن الزوج إذا كان سريع الإنزال والزوجة بطيئة، فعليه أن يطيل مداعبتها، ويكثر من احتضانها، ومص شفتيها وثدييها، وتحسّس صدرها وإليتها وجنبيها، وتقبيل رقبتها، ثمّ يدلك

بظرها برأس ذكره ببطء، بدون إيلاج. فإذا تهيّجت واحتضنته بقوّة، أولجه قليلاً قليلاً حتى يدخل كلّه، ويظلّ يحرّكه داخلها بشدّة إلى أن تنزل المرأة ماءها».

لاحظتُ يومها أنَّ عدسة الكاميرا توقفت أمام مشهد حرج، يشبه بجرأته الأفلام الثقافية. لم أجد الشيخة أمة المحب في مكانها. ربّما غادرت من وقت و لم أنتبه لذلك. معظم الطالبات كنّ في بوّابة القاعة على وشك الخروج. فاتن ظلت مندهشة في مكانها. «ما بك؟» قلتُ لها.

التفتت إليَّ ونهضت لتمشي إلى جواري. كنّا آخر المنسحبات.

«اليوم سيخلص الخيار والباذنجان والموز من السوق» قالت مع ضحكة خافتة. أظهرتُ أنّي لم أفهم قصدها.

«كم يا أكساس جائعة ستلوك هذي الخضروات والفواكه دون أن تشبع» أضافت.

قلتُ لنفسي: كيف لا أعرف مثل هذه الممارسات التي تقوم بها البنات وأنا أخت لولا؟ لكنّي لم أشأ أن أصرّح إليها.

حين سألتُ عن كتاب **الجنس في ضوء الإسلام**، في ثلاث مكتبات بجوار الجامعة، استغرب البائعون، إذْ إنَّ نسخهم، جميعها، بيعت منذ لحظات قليلة، وكان عليّ أن أذهب إلى شارع أبعد حتى حصلت على نسخة.

لم تصدّق لولا ما حدث، حتى بعد أن شاهدت وسمعت التسجيل في التلفون. استغربتُ قولها إنّه تلفيق لتشويه رجال الدين، مع أنّه ليس هناك علاقة ود تربطها بهم. ربّما لهذا السبب، بدا أنَّ الطالبات

لم يبحن بما حدث، حتى لأسرهن، معتقدات أنّه لا أحد سيصدقهن.

وقد مضى وقت ليس بالقصير لم تجرؤ فيه واحدة على التذكير بما حدث ولو في ما بيننا، بل تهيّأ لي أنّ الطالبات، وأنا منهن، لم يجرؤن على استذكار ما حدث حتى مع أنفسهن. كأنّ ما حدث لم يكن قد حدث، أو أنه قد حدث في الخوف.

شريط كاسيت خاص (3)

النساء المتبرّجات كُنّ الموضوع الأوّل الذي شغل عبد الرقيب، وهو يتدرّب على الخطابة، وإذا خرج قليلاً منه، فإن ذلك يكون إلى الحديث عن طاعة الزوجة لزوجها. كان صوته يُسمع عالياً وقويّاً من غرفته في سطح البيت، كان من المؤكّد أنّه يتخيّل نفسه معتلياً منبراً في جامع كبير، يوجّه منه وعظه إلى المنصتين إليه الجالسين في قاع الجامع. لا أستطيع أن أشرح إحساسي حين أعود لأستذكره وأسمعه مسجّلاً:

...

...

«أولئك النسوة المتبرّجات... أولئك النسوة اللواتي لم يَقِرْنَ في بيوتهن كما أمرهن الله... النسوة اللواتي لم يقرن وتبرَّجن تبرُّج الجاهلية الثانية... نعم إنّها الجاهلية الثانية... يخرجن إلى الأسواق كاشفات الوجه مُبَخَّرات معطّرات، يفتنّ الرجال بزينتهنّ، ويزاحمنهم بالأعمال كالشياطين... أولئك النسوة العابثات في شرع الله وسنّة نبيّه

المصطفى... أين سيذهبن من عقاب الله... أين... أين سيذهبن... أين؟ إنّهن إلى جهنّم وبئس المصير».

لا يغفل الحديث عن المؤمنات القانتات، الحافظات لفروجهن، الطائعات لبعولهن. حفظتُ الكثير من الجُمل لكثرة ما ردّدها ليعرف كيف يبدو صوته:

«فكّروا بكلام الله عزّ وجل في قرآنه الكريم... هل هناك ما هو أقدس من كلام الله؟ [يقول هذا السؤال بصوت عالٍ وغاضب]

يقول جلّ شأنه [يخفض صوته] في سورة النساء: الرجال قوّامون على النساء بما فضّل الله بعضهم على بعض، وبما أنفقوا من أموالهم. ويقول سبحانه وتعالى في سورة البقرة: للرجال عليهن درجة. هذا [يرفع صوته] كلام الله... شرع الله يقول: للذكر مثل حظ الأنثيين. بوضوح... بوضوح حدّد الله مكانة المرأة... الإسلام حفظ كرامة المرأة وشرفها حين أمرها بالمكوث في البيت... طائعة لزوجها... لقد قال عليه الصلاة والسلام... اسمعوا ما قال... قال الذي لا ينطق عن الهوى وإنّما... وإنّما من وحي يوحى: لو كنت آمراً أحداً أن يسجد لأحد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها... شُفْتُمْ كيف؟ لقد أمر الرسول المرأة بطاعة زوجها إلى حدّ أنّه كاد أن يطلب منها السجود له... هذا كلام النبي... حبيب الله وخاتم الأنبياء والمرسلين، مُشْ كلام الحكومة وقانونها العلماني الكافر... هذا شرع الله، مُش شرع هؤلاء السكارى الفاسقين الذين يبيتون الليل بأحضان الغانيات وفي الصباح ينادون بحرّية المرأة وخروجها وقتما تشاء... يختبئون من عيون النّاس في الليل ولا يدرون أنَّ عين الله تراهم...ساهرة لا تنام...»

صارت المرأة هي شغل ذهنه الأوّل، وأوّل قول حفظناه: «أكثر ما يُدخل المرأة النّار عصيانها لزوجها وكفرانها إحسانه»، و لم نعرف إلا بعد حين أنّه ليس مِن نبت فكره، إذ بدأه مرّة بقوله: قال رسول الله.

كلّ هذه الخُطب لم تستطع أن تمحو من ذاكرتي صورة رقيب القديمة، وهو يحرّضني، بعد أن ينتشي بشربه للربع، لأتحرّر من كلّ شيء.

...

...

إلى سماع شريط الأغنية من جديد

...

...

ويُسألُ في الحوادث ذو صواب
فهل ترك الجمالُ له صوابا

وكنت إذا سألتُ القلب يوماً
تولّى الدمع عن قلبي الجوابا

... ...

... ...

ولي بين الضلوع دمٌ ولحمٌ
هما الواهي الذي ثكل الشبابا

تَسَرَّبَ في الدُموعِ فَقُلتُ: وَلى
وَصَفَّقَ في الضُلوعِ فَقُلتُ: تابا

...

...

لولا ظلّت هي الداعم المالي الأساسي لكل الأسرة. لا أعرف كيف كانت تُدبّر مصاريف البيت قبل أن تعمل في الشركة والمكتب. لم تكن تتكفّل بشراء أكثر متطلّبات البيت الغذائية فقط، بل وتمنح أبي، في معظم الأيّام، قيمة القات الذي يتناوله. بعد أن يكون قد أكمل صرف راتبه الشهري خلال خمسة عشر يوماً، على الأكثر. تعبيراً عن امتنانه لعطائها لم يكن يسألها أين ستروح أو متى سترجع، حتى إنّه قال لعبد الرقيب حين بدأ يتساءل عن أسباب تأخرها في بعض الأيّام عن الرجوع إلى البيت، وعن سفرها إلى الخارج بدون محرم: «ليس لأحد أيّ دخل بها ما دمت أعيش، أنا وليّ أمرها، أبوها».

عبارته هذه اتخذت شكلاً آخر، بعد أن تحوّل لديه الشعور بالامتنان إلى ما يشبه الإحساس بأنّه يدين لها بحياته، التي أنقذتها من موت محقّق. الأطبّاء الذين أجروا له عملية في القلب أكّدوا له ذلك. لقد قامت بإسعافه إلى الأردن ودفعت تكاليف السفر والعملية والعلاج وحدها. في صنعاء قال له ثلاثة أطباء إذا لم تسافر وتجر العملية خلال عشرة أيّام فحياتك في خطر.

في ظهيرة اليوم الذي عاد فيه إلى المنزل لم يشأ أن يقول كلمته أثناء اجتماعنا صدفة حوله. قال: «تعالوا كلّكم بعد صلاة المغرب لأكلّمكم».

بقينا في قلق ننتظر ما سيقوله، حتى إنّنا لم نغادر بعيداً عن مكانه الذي كان مستلقياً فيه، وإذ نادى بأسمائنا واحداً واحداً ليتأكّد من وجودنا جميعاً في الموعد المحدّد، قال بصوت واهن، وهو مغمض العينين: «وصيّتي لكم... وصيّتي الوحيدة لكم... اسمع يا عبد الرقيب... أن لا أحد له دخل بلولا طول ما أنا عائش... ولا أحد له دخل بها وأنا ميّت... أمرها بيدها... ولا حكم لأحد عليها... سمعتم وإلاّ لا؟».

ظل أبي يردّد خلال الشهور التالية لمرضه أنّه يعيش بفضل الله الذي رزق ابنته لولا، وسخّرها له لتنقذه. كنتُ ألاحظ ابتسامة خفيفة على شفتيها عندما تسمع ما يقوله. في ما بعد صارت ترد بقولها: «كلّ شيء بفضله... أيوه بفضله... بفضله». وقد ظننتُ، ربّما كالآخرين، أنّها تقصد الله بقولها هذا، لكنّني اكتشفت بعد فترة أنّ مقصدها كان مختلفاً. انتبهت إلى أنّها كانت أثناء قولها تخبط براحة يدها اليمنى بين فخذيها، تماماً، فوق من تكنّ له الفضل.

...

...

ولي بين الضلوع دمّ ولحمٌ
هما الواهي الذي ثكل الشبابا

تَسَرَّبَ في الدُموعِ فَقُلتُ: وَلى
وَصَفَّقَ في الضُلوعِ فَقُلتُ: تابا

كُنّا نترقّب رأياً واضحاً من الشيخ رئيس الجامعة حول جملة

الفتاوى التي أعلنها الشيخ المَرْوِي في محاضرته، لكنّ ذلك لم يحدث. اكتفى بتصريح مقتضب لصحيفة الجامعة الأسبوعية: «الوقت لم يكن مناسباً لإصدار مثل هذه الفتاوى، فالطلاّب قادمون على امتحانات نهاية النصف الأوّل من السنة الجامعية، وهم بحاجة إلى التركيز على مقرّراتهم الدراسية ومراجعتها بدون أيّة بلبلة».

كانت إدارة الأنشطة في الجامعة قد حدّدت ما تسمّيه باليوم المفتوح أسبوعياً. تستضيف كلّ يوم خميس أحد شيوخ الدين من خارج الجامعة ليحاضر في ما يراه مناسباً للطالبات والطلاّب.

«هل يتّفق رئيس الجامعة مع فتاوى الشيخ المروي حين قال إنَّ الوقت لم يكن مناسباً لها؟ هل يعني أنّها مقبولة لو قيلت في وقت آخر؟ وإذا كان قد قال إنَّ الطلاّب بحاجة إلى مراجعة دروسهم المقرّرة بدون أيّة بلبلة، فهل يعني أن هذه الفتاوى مجرد إثارة للبلبلة، مجرّد ضجيج سرعان ما ينتهي؟» ظلّت طالبات وشيخات الجامعة يتناقلن مثل هذه الأسئلة بدون أيّ جواب. لا أعرف إذا كانت قد أثيرت الأسئلة نفسها بين الطلاّب والشيوخ في القسم الرجالي.

ما حذّر منه رئيس الجامعة أُصيب به ذهني فعلاً. لقد أخذتني البلبلة إلى أن أعود كثيراً لأسمع الفتاوى المُسجَّلة:

شريط مُصوَّر بكاميرا تلفون نقّال (فتاوى)

...

...

«بعض الآباء فيهم بقايا جاهلية، وعليهم أن يعرفوا الإسلام. يسمّون بناتهم: جميلة، فاتنة، غانية... هذه الأسماء مثيرة للشهوات، تكشف ما ستره الله في المرأة... لا إله إلاّ الله... هكذا الإسلام آخر الزمن... نسمّيها جميلة... فاتنة... يا سلام على التفسّخ... كأننا في سوق النخاسة، نعلن عن هذه العبدة الجميلة أو الفاتنة أو الغانية».

يشرح ويعلل ويضيف: «هذه التسميات مخالفة لمنهج الإسلام... لشرع الله... فلا يجوز لأحد التسمية بها إلاّ من كفر... قلت في محاضرة سابقة إنَّ هذه التسميات جاءت بسبب الغزو الثقافي الغربي لقيمنا الإسلامية عبر التلفزيون... عبر المسلسلات والأفلام... والآن... الآن عبر الانترنت... السلاح الجديد لمحاربة الإسلام هو الانترنت... عبر ما يتناقلونه من أغانٍ وصور إباحية في التلفونات الجوّالة... البلوتوث... نعم البلوتوث. لقد صار على المسلم الصحيح، المسلم الحقيقي، أن يحافظ على دينه وأسرته وكيان الأسرة المسلمة عامة... كيف؟».

ويصدر الشيخ جوابه القاطع أو فتواه: «لا يكون ذلك إلاّ بتكسير التلفونات التي فيها نسخ بلوتوث، وتحطيم دشّات الفضائيات وأجهزة الانترنت... أجهزة الكمبيوتر هي أصنام هذا العصر، وعلينا تحطيمها كما حطّم المسلمون الأوائل أصنام المشركين في مكّة المكرّمة».

كما هو واضح فأسلوب النسخ عبر البلوتوث، الذي حفظ هذه المحاضرة بالصوت والصورة، لم يغفله الشيخ المروي في فتاويه.

بدا أنَّ أحد الطلاّب من القسم الرجالي صوّر المحاضرة بتلفونه

النقّال ليوزّعها على نطاق واسع. كلّما عدت إلى سماعها من ملف التسجيل الذي نُقل يومها إلى تلفون لولا النقّال فارت عندي عدّة أسئلة. ما قاله عن تعليم المرأة الجامعي لم يثر فيّ جملة تساؤلات فحسب، بل ومزّق فكري حين رحت أقارن بين ما كنت ألفت وتيقّنت وما سمعته من المُحاضر في اليوم المفتوح:

«ماذا نستفيد من المرأة حين ندعها تدرس الإعدادية أو الثانوية أو الجامعة؟ ألا يكفيها أن تتعلّم إلى الصف الثالث حين يكون عمرها بلغ تسع سنوات؟ إنّه العمر الذي يجوز فيه تزويج البنت، أسوة برسول الله محمد صلى الله عليه وسلّم الذي تزوّج عائشة وعمرها تسع سنوات. إنَّ تعليمها بعد هذا العمر يعني خروجها من البيت وملاقاتها للرجال. وهذا مخالف لتعاليم الله الذي أمرهن أن يقرن في بيوتهن... هذه الطالبة صارت امرأة بعد بلوغها التسع. لتكن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها في زواجها أسوة للمؤمنات. زواجها في هذا العمر من رسول الله سنّة واجبة، علينا اتباعها. المثل الشعبي [يخفض صوته ضاحكاً] يقول: زَوِّجْ بنت الثمان وعليَّ الضمان. فلا يجوز، لا يجوز [يرفع صوته] لنا أن نسكت ونحن نرى البنات يختلطن في الكلّيات مع الأولاد؛ أو تقوم مدرّسات بتدريس الأولاد بالصفوف الابتدائية بحجّة أنّهم أطفال؛ ماذا لو الطفل كبر وذَكَر أو تذكّر أستاذته؟ [يتوقف في لحظة صمت] وللأسف، أقول للأسف [يقول بصوت خافت]. نعم، أقول للأسف [يرفع صوته، وبالنبرة العالية نفسها يواصل] حتّى الجامعات والكلّيات التي تُعتبر إسلامية تفتح أقساماً خاصة للطالبات. وباسم الإسلام يخالفون الإسلام. هل يجوز أن نسمع صوت المرأة

ولو كانت تتلو القرآن؟ نعرف أنَّ صوت المرأة عورة فكيف انقلب الأمر؟ فتحنا كلّيات لتحفيظ القرآن لكي نسمع فيها صوت المرأة... صوت الحُرْمَة الحَرام... صوت الفتنة... صوت الشيطان وهو يغوينا بكلام الله. وبدلاً من أن نسمع كلام الله ونتدبّر معانيه نسمع حلاوة الصوت ونفتتن بجمال أنوثته... لا إله إلاّ الله. لا إله إلاّ الله. اللهم إنَّ هذا منكرٌ فأزله. اللهم إنَّ هذا منكرٌ فأزله. اللهم إنَّ هذا منكرٌ فأزله».

حاضرون من القسم الرجالي كانوا يتفاعلون مع صوت الشيخ الغاضب. يردّدون جماعياً بعد دعائه: آمين... آمين، كما يبيّن الشريط.

...

شريط فيديو ثقافي (خاص)

ألحّت عليّ لولا أن أجيء معها إلى منزل إحدى زميلاتها في العمل.

حين اكتشفت أنَّهن ستشاهدان فيلماً ثقافياً، أو فيلماً جنسياً، احتججت وأردت المغادرة. أمسكتا بي وترجتاني أن أبقى. أصررت على موقفي. وضعتُ راحتي يديّ على عيني ونهضتُ لأبتعد عن مشاهدة الفيلم الذي كان قد بدأ.

كيف لي، وأنا التي صرت أُدعى الشيخة، أن أقبل ما عرفته، قبل أن أحدّد وجهتي وأختار مساري الجديد، المعاكس لكلّ ما مضى، ولكلّ ما عاشته وما زالت تعيشه لولا؟

ظلّت تحاول بكل قوّتها إزاحة يديّ عن وجهي، وتيقّنتُ وهي

تحاصرني وتمنعني عن الذهاب أنّنا سنمضي في عراك، حيث لم يعد هناك من مجال للتفاهم؛ لكنّ لولا اتخذت أسلوباً آخر، وهي تهدّئني: «اسمعي. أرجوك اسمعي. أنا ما قصدت إلاّ تعرفي ما فيه بَسْ، مُشْ تشوفيه... هذا فيلم ثاني. مختلف... صح هو فيلم، بَسْ اللي فيه مُصوَّرين ما هُمْش من الخارج. اللي فيه من عندنا. سِكْس بلدي».

«وأنا مالي... بلدي وإلاّ خارجي؟» قلتُ وأنا أشد جسدي إلى الخارج.

«انتظري مَالِكْ هكذا... شُوفي بَسْ لقطة وبعدها أُحْكُمي. الفيلم ماهوش بلدي بَسْ. اللي فيه يشبهوْ ناس تعرفيهم. شُوفي لقطة بَسْ... لقطة»

«هه... شُفت... هه» قلت بانفعال وأنا أفتح عينيّ وأوجههما نحو الفيلم الذي لم يتوقّف عرضه. كنتُ قد أردت أن أرضي، بهذه اللفتة العابرة، مزاج لولا لتدعني بعدها أذهب لحالي، لكنَّ المشهد الذي اصطدمت به عيناي ليس من الاعتيادية لأتجاوز لحظيته وأمضي. فوجه المرأة التي كانت تعتلي الرجل الممدّد على ظهره ليس بغريب، بل هو قريب، قريب جدّاً. كانت العدسة تتحرّك لتظهر وجهها وصدرها العاري وأسفل بطنها، مركّزة أكثر على جذعها وهو يعلو ويهبط فوق وسط الرَّجل. كاد اسمها، مع المفاجأة، أن يضيع من ذاكرتي، أو أنَّ موقعه في الذاكرة ارتبك وتوارى مفزوعاً، بعد أن فوجئ بكشف غير متوقّع. إنّها نورا. لا تشبهها، بل هي نفسها. فتحتُ عينيَّ لأتحقّق عمّن هو تحتها. بدا لي أنّه عبد الرقيب، لكنّني لم أتأكّد. كان المصوّر يركّز على جسد المرأة أكثر من الرجل. لولا اتضح لها أنّهما عبد الرقيب

ونورا، وأنَّ المكان الذي كانا فيه هو سطح منزلنا، أمام غرفتهما. أحصت الكثير من الدلائل كالفراش والخلفية المتمثلة بباب الغرفة، ومصدر ضوء الكهرباء؛ لأصبح، أنا أيضاً، مقتنعة بما وصلَتْ إليه.

«ما نَفْعَل؟»

لم يكن لديّ أيّ جواب عن سؤال لولا. اتّفقنا، فقط، على أن نتحدّث مع نورا، وأن لا نخبر أحداً غيرها.

بدت نورا أمام شريط الفيديو مفزوعة ومرتبكة، ولا تدري ماذا تقول. كانت كأنّها تشاهد حياة عاشتها دون أن يكون لها عِلم بها. ملامح وجهها مغايرة لصُورتها تلك التي تشهق في الشريط ملتاعة بالرغبة «أح... أح... أح...»، ومبتهجة التذاذاً وانتشاءً.

مضى يومان، ونحن الثلاث في حيرة، لم تخرجنا منها إلاّ ضربات عبد الرقيب العنيفة التي تتالت على الباب، مختلفة عن دقّاته الخفيفة المعتادة، التي صرنا نسمعها بانتظام، بعد كل صلاة، يذهب لتأديتها جَماعة في المسجد.

اختلاف دقّاته لم يشكّكنا في هويّته، بل إنَّ هذا الاختلاف صار سبباً لتأكيد يقيننا، نحن الثلاث على الأقل، أنَّه هو.

كان على لولا أن تذهب لتفتح له الباب، فيما بقيت نورا معي في غرفتنا، التي أغلقنا بابها.

«أين هي... أين بِنْت القحْبة... أين هي؟ كان عندي شكّ أنَّ هذي البنت قَحْبَة».

تكوّمتُ، مع نورا، خلف الباب لنسمعه. وضعنا أيدينا فوق مزلاج الباب وكأنّنا نُكسب إغلاقه قوّة إضافية.

«اهدأ يا بْني... مَالَكْ... ما بِهْ؟» قالت أمّي.

«صلّي على النبي... مالَكْ؟. أنتَ رجُل مؤمِن... مَنْ هو اللي صَوَّركم وأنتم هكذا؟ هي ما تعرفش... أقسم لك بحياتي ما لها دَخل» قالت لولا، وكأنّها صارت متأكّدة من سبب غضبه وانفعاله.

«إيشْ مَنْ صَوَّرنا؟ القَحْبَة مُصوَّرة بالفيلم مع واحد حبيبها... عشيقها... تَزْني معه... قد شافوه كلّ النّاس».

«عبد الرقيب، ما تقول؟ اهدأ... أنا متأكّدة أنّك أنتَ اللي معها. المهمّ الآن، كيف نعرف من قام بتصويركم وأنتم في سقف البيت؟».

صوت أبي، الذي بدا أنّه يستفهم عمّا جرى، لم نسمعه بوضوح، فيما بقيت أمّي تتكشّف ما أخفيناه عنها.

كُنّا، الثلاث، قد وصلنا إلى قناعة بأنّ كاميرا متلصّصة، من أحد بيوت الجيران، هي من صوَّرت مضاجعتهما في ليلة صيفية، لم يستطيعا فيها تحمّل الحرارة داخل الغرفة فخرجا منها إلى السطح. صوّبنا اتهامنا إلى بيتين لارتفاع طوابقهما عن منزلنا، إلاّ أنّ معظم الشكوك اتجهت نحو أولاد الجَذَعْ المعروفين بمشاكساتهم لفتيات الحارة. عبد الرقيب رفض استنتاجنا. ولم يقتنع بالتراجع عن فكرة قتله نورا، إلاّ بعد أن قال له أبي «طلّقها بدلاً من أن تقتلها»، فسمح لها بالذهاب إلى منزل أسرتها، على أن يرسل ورقة الطلاق إليها في وقت لاحق.

«عمي فكره منذ أن شاهد نورا في اللقطة الأولى، ولم يصبر. لو دقّق في كلّ ما في الشريط لاكتشف أنّ الذي كان معها هو نفسه» تقول لولا، وقد عجزت أن تجد مبرّراً آخر لموقفه. عادت تفصّل لنا ما

استنتجته. ظنّت أنَّ هناك تلاعباً في تصوير الشريط، ومَنْتجته. قالت إنَّه جرى إعداده بحيث لا يظهر عبد الرقيب واضحاً، فيما تبرز نورا بجسدها وحركاتها بوضوح.

شهقات نورا وجموحها الشبق بدت كأنّها صارت حديث الجميع في الحارة، بل ربّما حديث معظم سكّان المدينة، سواء شاهدوا الفيلم أو لم يشاهدوه. كثيرون ممن نعرفهم وجّهوا إلى أفراد الأسرة سؤالهم، إذا ما كان الجسد المعروض في الشريط، هو بالفعل جسد نورا؟ قلّة، فقط، اكتفوا بالتحديق في وجوهنا. هؤلاء كانوا أشد إقلاقاً من أولئك الذين يجاهرون بالأسئلة، حتى ظننتُ أنَّ نظرات عيونهم الصامتة تحمل أحكاماً وأجوبة أكثر ممّا تحمل أسئلة.

بقينا، في تلك الليلة، نهدّئ من غضب عبد الرقيب، بعد أن أوصل أبي نورا إلى بيت أهلها.

في صباح اليوم التالي، صحونا مفزوعين من دقّات شديدة على الباب، ومنظر مسلّحين يخرجون نورا من منزلها، ويجرجرونها إلى فوق سيّارة عسكرية. بجوارها أجلسوا عبد الرقيب، بعد أن أخرجوه بثوب النوم، ومضوا بهما إلى حيث لا ندري.

...

...

لأسمع أم كلثوم

...

...

وَلو خُلِقَتْ قُلوبٌ من حَديد
لَما حَمَلَتْ كَما حَمَلَ العَذابا

... ...

... ...

وَلا يُنبئكَ عَن خُلُقِ اللَيالي
كَمَن فَقَدَ الأَحِبَّةَ وَالصَحابا

فمَن يغترَّ بالدنيا فَإِنّي
لَبِستُ بِها فَأَبلَيتُ الثيابا

...

...

خرج عبد الرقيب بعد ثلاثة أشهر ويومين قضاها في السجن. نورا لم تجلس في سجن النساء سوى عشرة أيّام. ظلّت تسكن في منزل أسرتها وحيدة. رفضت العودة إلى منزلنا إلاّ إذا كان لتسلّم ورقة الطلاق، حين يخرج عبد الرقيب. أبوها وأمّها تركا لها مفتاح البيت حين سافرا قبل أربعة أشهر للعيش في ميتشيغن بأميركا مع ولدهما الذي تزوّج هناك وحصل على الجنسية الأميركية. بقيت لولا عدة أسابيع تذهب لتنام معها، لكي لا تحسّ بالوحشة في وحدتها.

لم نعرف سبباً واضحاً لرفض عبد الرقيب طلاقها منه، بعد أن خرج من السجن. في ليلة اكتشافه الشريط، لم يكن يرغب في تطليقها، أو فصلها من حياته، فحسب، بل وفصلها من الحياة.

«إذا كنت لم تعترف إلاّ في النهاية، وبدون اقتناع كامل، بأنّك الذي في الشريط مع نورا، فهل تريدها أن تبقى زوجة لك وأنت تتهمها بمضاجعة واحد غيرك؟» قالت لولا، وهي تحاول إقناعه بكل الوسائل بأن يطلّق. أخبرَته بما عملته، مع نورا، من أجل إنقاذه من تعذيب المحقّقين في جهازي المباحث والأمن السياسي، ولكي يخرج بسرعة دون محاكمة. اعتقدت أنّ عليه اتّباع رأيها مقابل ما قامت به «كانوا يريدون تحويل قضيتك إلى النيابة العامة، ومحاكمتك بتهمة إنتاج أشرطة إباحية والمتاجرة بها... أنت لا تدري... أنا ما قدرت أخرجك من السجن إلاّ بمساعدة نورا، على شرط أن تطلّقها بعد خروجك... الآن طلّقها، أحسن لك».

بدا مكتئباً وقليل الكلام. رفض أن يذهب ليسأل عن مصير عمله، الذي غاب عنه طوال فترة السجن. يخرج من غرفته في السطح إذا ما دعوناه ليتناول الطعام، وسرعان ما يعود. لولا كانت دائمة الاقتحام لغرفته، تطلب منه تلبية رغبة نورا بالطلاق، وإذْ لم تستطع إقناعه فوجئنا ذات مساء بمجيء نورا نفسها إلى منزلنا برفقة لولا. حين رأيناها تصعد مباشرة إلى السطح، ظننّا أنّ المياه عادت إلى مجاريها وتصالح الزوجان. بانت فرحة على وجهيْ أبي وأمّي، وربّما على وجهي أنا أيضاً، لكنّ لولا لم تدع لظنوننا أن تذهب بعيداً، ودَعَتنا بهمس إلى أن نقترب من غرفة السطح لنسمع ما يدور بينهما.

«شُوفْ أنت أمام خيارين... يا تطلّقني يا أطلّقك». كان صوتها واضحاً، ومثيراً لنا بأسلوبه وخياريه. كيف تستطيع هي أن تطلّقه؟ بدت لولا أنّها لا تشاركنا اندهاشنا واستغرابنا لما نسمع. ابتسامتها

بقدر ما تنبئ بوثوق معرفتها بالأشياء تؤكد وجود مراوغة ما، على الأرجح، ماكرة.

«أمهلك أربعاً وعشرين ساعة... بُكرة سأجيء مثل هذا الوقت وأنت شُوفْ خَرَاجَكْ».

حاول أبي، كما بدا لي، أن يهدّئها، ويفهم ما تقوله. لم تقبل رجاءه أن تبقى لتناول العشاء معنا، وحين اقترحت عليها أمّي أن تذهب لولا معها، لتؤنس وحدتها في الليل، هزّت رأسها موافقة، ومضت دون أن تنتظرها.

...

جَنَيتُ بِرَوضِها وَرداً وَشَوكاً
وَذُقتُ بِكَأسِها شَهداً وَصابا

كنّا ننتظرها على قلق. أبي وأمّي قلّلا من أهمّية تهديدها. «ما بِشْ مَرَةْ قد طلّقت رجّال» ظل أبي يردّد طوال الوقت وكأنّه يريد أن يؤكّد استقرار يقينه الذي زعزعته نورا. حين جاءت في الموعد بالضبط، بدا متحفزاً لمعرفة مصير ما يعتقد، فذهب بنفسه يدعو عبد الرقيب لمواجهتها في صالة البيت، بعد أن قالت إنّها تريد أن تنهي أمر العلاقة أمام مرأى أفراد الأسرة، لكنّ عبد الرقيب لم يستجب وبقي في غرفته.

«ها... ما قرّرت؟... هيّا طلّقني» قالت نورا بعد أن دلقت باب غرفته، ونحن إلى جوارها، على السطح. «هيّا طلّقني» أعادت بصوت

مرتفع، فيما ظلّ عبد الرقيب يظهر لامبالاته بما يسمع، مركّزاً عينيه إلى صفحات كتاب. «هيّا طلّقني...» صوتها كان هذه المرّة أعلى، وبدا لي أنّ بعض الجيران سمعوه. لم تنتظر كثيراً، وبدت غاضبة من عدم التفاتته وتصرّفه كأنّه لا يشعر بوجودها، بل وبوجودنا جميعاً. هزّت رأسها مرّتين، كمن يتوعد بشيء أو يهيّئ لإعلان ما وعد به.

...

...

جَنَيتُ بِرَوضِها وَرداً وَشَوكاً
وَذُقتُ بِكَأسِها شَهداً وَصابا

فَلَم أَرَ غَيرَ حُكمِ اللهِ حُكماً
وَلَم أَرَ دونَ بابِ اللهِ بابا

مدّت يدها إلى حقيبتها اليدوية، وأخرجتها سريعاً: «هذي ورقة طلاقك... أنتَ طالق... أنتَ طالق... أنتَ طالق» قالت بصوت مرتفع ورمت إليه بالورقة، ومضت.

.

.

تيقّن أبي بعد عشرات الاستفسارات أنّ ابنه صار مُطلّقاً بالثلاث، طلاقاً لا رجعة فيه. لولا أكّدت له أنّ حيثيات حُكم المحكمة، التي تمّ بموجبها الطلاق خُلعاً، سليمة وصحيحة من الناحية الشرعية، نازعة شكوكه التي ظلّت تراوده: «خلعته مقابل إعفائه من دفع مؤخّر

الصداق والنفقة... مِنْ حقّه أن يطالب بتعويض مالي أكثر ويستأنف الحكم على هذا الأساس، أمّا الطلاق فلا رجعة عنه... هذي نورا... اكتشفَتْ أنَّ لها إمكانيات لا توجد عند أيّ واحدة غيرها».

«حتى عندك؟» سألها أبي، لتجيبه بضحكة مكركرة، كأنَّه لم يسألها، وإنّما قام بدغدغتها بغتة. حين انفردتُ بها سألتها عن هذه الإمكانيات التي تتمتع بها زوجة أخينا السابقة؟ «وهل في غيرها؟» قالت وخبطت بيدها بين فخذيها. لم أصدّق أنَّ لنورا علاقة بهذا المجال وبقيت ألح بأسئلتي، حتى بعدما كشفت لي لولا تفاصيل ما جرى لنورا أثناء سجنها، وأثر هذه الإمكانيات على مجريات القضية. بانَ عليها ضيق وهي تتحدّث، ربّما، لعدم تقدير دور هذه الإمكانيات: «لولاها... لولا هذه الإمكانيات لكان أخوك المحترم ما زال بالسجن بحُكم أو بدون حُكم».

الوجه الثاني من الأغنية

أحاول سماع الأغنية هذه المرّة بتركيز لأعرف ماذا يريد جارنا من وراء إهدائها لي.

...

...

جَنَيتُ بِرَوضها وَرداً وَشوكاً
وَذُقتُ بِكَأسِها شَهداً وَصابا

... ...

... ...

فَلَم أَرَ غَيرَ حُكمِ اللهِ حُكماً
وَلَم أَرَ دونَ بابِ اللهِ بابا

ماذا تعني بـ(صابا)؟

جنت الوَرد والشوك، وذاقت الشهدَ، العَسَل، والصاب، ربّما هو المرّ، فلم تر غير حُكم الله...

... ...

... ...

وأَنَّ البِرَّ خَيرٌ في حياة
وَأَبقى بَعدَ صاحِبِهِ ثَوابا

نَبِيُّ البِرِّ بَيَّنَهُ سبيلاً
وسَنَّ خِلالَهُ وهَدى الشِعابا

ماذا تقول؟

البرّ الذي بيّنه النبي خير وأبقى، وهو الطريق الذي هدى خلاله الشعوب. كلمات جميلة في مدح النبي. لا تنافي الإسلام. كيف لم أنتبه إلى هذا الشريط من قبل؟

كنت أظنّها أغنية حُب... أليست كُلّ أغاني أم كلثوم في الحبّ؟ معلوماتي خاطئة. لكنّ هذا ما يقال.

وأَنَّ البِرَّ خَيرٌ في حياة
وَأَبقى بَعدَ صاحِبِهِ ثَوابا

نَبِيُّ البِرِّ بَيَّنَهُ سبيلاً
وسَنَّ خِلالَهُ وهَدى الشِعابا

... ...

... ...

وكانَ بيانُهُ للهَدي سُبلاً
وكانَت خَيلُهُ لِلحَقِّ غابا

وعلَّمَنا بِناءَ المَجد حَتّى
أَخَذنا إِمرَةَ الأَرضِ اغتِصابا

وَما نَيلُ المَطالبِ بالتَمَنّي
ولَكَن تُؤخَذُ الدُنيا غلابا

المقصود هنا النبي إذاً. من بيّن لنا طريق الحق ووجّه خيله للجهاد من أجله. هو محمد عليه الصلاة والسلام، الذي علّمنا بناء المجد حتى أخذ المسلمون إمرة الأرض اغتصاباً. علّمنا أن نأخذ الإمارة بالغصب. نغتصبها. نأخذها بالقوّة. نقاتل الكافرين المشركين الملحدين. لا فائدة من التمنّي. لن نحصل على مطالبنا بالأمنيات. بالإصرار، بالقوّة والغلبة سنأخذ ما نريد. يا آآه... ما أجمل هذا الشعر؟ النبي يعلّمنا العزم والإصرار.

وكانَ بيانُهُ للهَدي سُبلاً
وكانَت خَيلُهُ لِلحَقِّ غابا

وعلَّمَنا بناءَ المَجد حَتّى
أَخَذنا إمرَةَ الأَرضِ اغتِصابا

وَما نَيلُ المَطالبِ بالتَمَنّي
ولَكَن تُؤخَذُ الدُنيا غلابا

ألا يمكن أن يكون هناك معنى آخر؟

ألم تقل لنا أستاذة اللغة العربية وهي تشرح لنا في المعهد أحد بيوت الشعر إنَّ المعنى في بطن الشاعر؟

...

...

وما استَعصى على قَوم مَنالٌ
إذا الإقدامُ كانَ لهُمْ رِكابا

وهذا القول جميل... كَمْ أنا غبيّة؟... لم أسمعها بهذا الشكل من قبل؟ ليس هناك شيئاً عصيّاً أو صعباً على قوم إذا أقدموا وأرادوا تحقيقه. ليس هناك من مستحيل...

وَما استَعصى عَلى قَوم مَنالٌ
إذا الإقدامُ كانَ لهُمْ رِكابا

أَبا الزَهراء قَد جاوَزتُ قَدري
بِمَدحِكَ بَيدَ أَنَّ لِي انتِسابا

ما أجمل ربطها بين البيتين بصوتها الجميل. لتسمعوا... ما إن تكمل البيت الأول بـ(ركابا) حتى تصلها بـ(أبا الزهراء). ما أبهى صوتها وهي تردِّد (أبا الزهراء)، لقب النبي محمد عليه الصلاة والسلام، أبي فاطمة الزهراء؟ سأعيد هذا المقطع، من جديد، مرّات ومرّات.

...

...

...

وَعَلَّمَنا بِناءَ المَجدِ حَتّى
أَخَذنا إِمرَةَ الأَرضِ اغتِصابا

قبل أن يتّخذ الدين طريقاً لحياته، كان رقيب يقول لي: «إذا أردتِ أن تلعبي وأن يكون لكِ وجود فالعبي في الوقت المخصّص للّعبة، تماماً

كما في لعبة كرة القدم، ولا تَقْبلي اللعب في الوقت بدل الضائع أو الإضافي، فإنْ لم تلعبي في الوقت الأساسي للعبة ما ابحثي عن لعبة أخرى. لا تَقْبلي أن تكوني هامشية».

حين كان يشرب الرُبْع، كما يسمّيه، يتحوّل إلى كائن آخر، أشبه بطائر، لا مقرّ له ولا حدود لحرّيته.

كان يحصل على ربع زجاجة الخمر من أحد رفاقه، كما يقول، في أكثر المرّات. حين يصل إلى غرفته في سطح البيت يقطع بأسنانه طرف كيس النايلون الذي وُضع الخمر فيه ليسكبه في قارورة بلاستيكية، ويظلّ يرتشفه بعد أن يمزجه بقليل من الماء. لم يكن أحد يعرف، سوى أنا ولولا، بعاداته تلك شبه الأسبوعية التي ينعزل خلالها عن أبي وأمّي. أحياناً يخالف هذه العادة وتصبح شبه يومية، إذا ما زاد أصدقاؤه في العزومات، أو قرضته لولا بعد إلحاح منه قرضاً ملعوناً، كما كنت أقول لهما، لشراء الرُبْع.

لا أدري، هل أرادني هذه المرّة أن ألعب في الوقت المخصّص، حين أبلغني بأنَّ أحد الإخوة قد خطبني منه، أم لم يجد لي فرصة سوى اللعب في الوقت الضائع؟

...

...

وما نَيلُ المَطالبِ بالتَمَنّي
ولَكن تُؤخَذُ الدُنيا غِلابا

لم تُتَح لي فُرصة اللعب ليكون لي الاختيار. وافقتُ على الزواج بصديق

عبد الرقيب، و لم أكن أدري أيّ دور سأقوم به في اللعبة. «أن تلعب في الوقت بدل الضائع خير من ألاّ تلعب أبداً» قلتُ وأنا أحاول إقناع نفسي بمصير مستقبلي القادم.

أصرّ عبد الرقيب على أن يأتي خطيبي لرؤيتي قبل عقد الزواج. قال إنَّ ذلك واجب شرعي. وافقت واستعددت لذلك، لكنَّ عريسي، حين جاء بجسمه الشاب النحيل ولحيته الطويلة النَّاعمة، لم يرني ولو بلمحة عين. بدا خجولاً أكثر من اللازم. كان منكّساً رأسه إلى أسفل وعيناه بدتا مغمضتين خلال اللحظة القصيرة التي دخل فيها إلى منزلنا وظلّ يردّد: الحمد لله... الحمد لله... اللهم اختر لنا ما فيه الخير وما ترضاه.

وما نَيلُ المَطالبِ بِالتَمَنّي

...

...

لم يكن سهلاً ما عانيته ليلة الدُّخلة. لقد قرأتُ، وأعدتُ قراءة الكثير من الكتب التي تتحدّث عن الزواج والمعاشرة الزوجية في ظل القرآن والسنّة النبويّة. مع هذا، لم تكن الكتب كافية. لقد ساعدتني على تجاوز الخجل الذي تواجهه العروس ليلة دُخلتها، التهيّؤ لأوّل مضاجعة، لكنها لم تخبرني ببعض الواجبات التي تسبق **المضاجعة الشرعية**. فما إن استلقيت على السرير، بعد أن بدّلت ملابس الزفاف بملابس النوم،

وتعطّرت، ورتّبت شكلي، كما أوصتني أمّي، ومعها صديقاتي، حتى رأيت زوجي أبا عبد الله وقد تخفّف من ملابسه، وراح بعد أن توضأ في الحمّام يفرش السجاد على قاع الغرفة ويصلّي ركعتين. قلت له: «تقبّل الله»، قال «تقبّل منّا ومنك»، وأضاف: «هداك الله، صلّي ركعتين لله، ليبارك زواجنا ويعطينا ذُرّية صالحة إن شاء الله». نفذت طلبه الذي بدا لي كالأمر، وحاولتُ مجدّداً أن أستعيد زينتي ورائحة عطري. خلع ثوبه الأبيض القصير، وأبقى فنيلة على صدره وسروالاً أبيض فضفاضاً، يغطّيه من وسطه إلى كاحليه. لاحظته مرتبكاً وهو يحاول أن يزيح بصره عن جسدي. رداء النوم الشفّاف يغطي القليل من صدري ولا يصل إلاّ إلى أعلى فخذيّ. حاولت أن ألفته إلى مفاتن جسمي العارية الأخرى، ساقيّ وفخذيّ، شعري الطويل المنسدل بضفيرتين إلى خصري، وبينهما وجهي المشدود بابتسامة مترقّبة، رقبتي المدعوكة بروائح العطور العربية الأصيلة التي أوصت بها الأخوات الملتزمات بالشريعة الإسلامية.

لم ينحن ليشمّ عطري، وظل يردّد «الحمد لله... الحمد لله... ما شاء الله... الحمد لله». لا أدري سبباً شرعياً يحول بينه وبين أن يفتح عينيه على اتساعهما ليراني. اعتدلتُ مستلقية على ظهري، منتظرة مبادرته التالية، بعد أن جلس إلى جواري.

.

.

وما استَعصى على قَومٍ مَنالٌ

حين انحنى على ركبتيه، ووضع يديه على ساقي، وباعد بينهما، تذكّرت ما قرأته عن المداعبة قبل الممارسة الجنسية، أمّا وقد مدّ يديه وخلس سروالي النّكس القصير وأزاح سرواله الطويل من وسطه إلى منتصف فخذيه، فإنّني أدركتُ أنّ المداعبة مجرّد فكرة موجودة في الكتب ليس إلاّ، حتى تلك الأفلام الثقافية التي شاهدتها بدت لي، وأنا أستذكرها، خالية من المُداعبة.

بدا عضوه خامداً، يغط في نوم عميق. مع هذا، ظلّ ممسكاً به، يضمّه بيده اليسرى ويدفع به إلى ما بين فخذيّ. قبل أن يبدأ خطوته هذه، كان قد ردّد آيات قرآنية وأدعية، بدأها بـ«أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، بسم الله الرحمن الرحيم». شعرتُ بالحرج وأنا أسمعه، إذْ لم أدر ماذا أقول في المقابل. بدا أنّه ينفّذ تعاليم دينية يجب أو يستحبّ قولها.

«بسم الله، اللهم جنّبنا الشيطان وجنّب الشيطان ما رزقتنا. اللهم إنّي أسألك من خيرها وخير ما جبلت عليه وأعوذ بك من شرّها وشرّ ما جُبلت عليه».

تذكرتُ أنّني سمعت مرّة أنّ هناك ما يسمّى بدعاء النكاح، فهل هو ما يقوله؟

حاولت في نهاية تساؤلاتي الصامتة أن أحرّك شفتي لأوهمه أنني أردّد، أيضاً، آيات وأدعية بصوت غير مسموع. خفت أن يثيره جهلي في أمور، ربّما تكون من الأسس الشرعية. لكنّ التخوفات لم يعد لها معنى أو أهمّية بعد أن تم تجاوز هذه المقدّمات وأصبحنا معاً في مواجهة

الفعل. على الأرجح، كان عليه أن يبقى وحده في مواجهة الفعل، وأظلّ أنا منتظرة لأصبح المفعول به، لا أكثر. «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، بسم الله الرحمن الرحيم» ظلّ يردّدها أكثر من عشر مرّات، وهو يمسك بعضوه ويدفع به نحو كُسّي. سرعان ما أحسست أنّه غير قادر على تجاوز الباب والدخول، مع أنّي فتحت له دون أن يقوم بدقّات منبّهة عليه.

.

.

وما نيلُ المَطالبِ بالتَمنّي
ولكن تُؤخَذُ الدُنيا غِلابا

حدّدت لي أمي برنامجاً غذائياً من شأنه أن يقوّي زوجي ويساعده على تجاوز الصعاب. صار موضوع ضعفه يقلقها حتى إنّها باحت بذلك إلى لولا مع أنّني رجوتها ألاّ تخبرها. لا نبدأ حديثنا، كلّما التقينا، إلاّ من هذا الموضوع. تقول أمّي هامسة: «هَا... قامْ وإلاّ عادُهْ؟». «عادُهْ» أردّ ضاحكة بصوت خافت، ولكن مسموع، لكي لا تعاود لولا السؤال نفسه بشكل آخر: «هَا مفعوصة... في جديد... في زيط ميط؟».

لا يشغل بال لولا أكثر من الزيط ميط. أعطتني كبسولة، وطلبت منّي أن أذوّبها في كأس عصير وأقدّمه إلى أبي عبد الله دون أن يدري. تردّدتُ كثيراً قبل أن أستجيب لمقترحها؛ لكن، إلى متى سأبقى بدون زيط ميط؟ أريد أن أشعر أنني أحيا، أطعم الحياة.

كان أبو عبد الله كثير التناول للعسل الدوعني الذي قال إنّه وصله من حضرموت بشكل خاص. كما رأيته يتناول معجوناً في علبة كُتب عليها اسم: خلطة العريس. في أحد الأيّام جاء بباكت فيه قِطَع صغيرة حمراء: «هذه نبتة أعشاب جونسون الكورية... قالوا إنّها فعّالة بإذن الله». تناول قِطعَة منها، وبعد نصف ساعة تناول قِطعة ثانية. «أنا خائف لو يكون هناك مضاعفات إذا تناولت منها الكثير» قال، و لم يتوقّف عن مد يده إلى الباكت، حتى أكمل كلّ ما فيه. رأيته متضايقاً ومكروباً. كان يعوّل كثيراً على النبتة الكورية، وبدا أنّه في أدنى درجة الإحباط حين لم يتحقق له ما أراد.

شعرتُ، ربّما، بالشفقة لأوّل مرّة نحوه. قلت له: «لا عليك يا حبيبي... لا مشكلة... المعاشرة ليست كلّ شيء... هيّا لنتوضأ ونصلّي صلاة الوِتْر وننام».

كانت أوّل مرّة أقول له «يا حبيبي»، أمّا ثاني مرّة فقد قلتها أثناء إصابته باختناق تنفّسي تبعته غيبوبة إثر تناوله الحبّة الزرقاء التي ذوّبتُها له مع عصير البرتقال. فزعت حينها ولعنتُ لولا ونصائحها بعد أن تخيّلت أنّ أبا عبد الله قد مات. رحتُ أندبه وأودّعه بكلمات الحبّ التي لم أتدرّب على قولها من قبل. حين قام عبد الرقيب وأبي بإسعافه إلى المستشفى كنت متأكّدة من أن لا أمل في عودته إلى الحياة. شعرتُ أنّني فقدتُ الرجل، الذي كان بمثابة الحلم، إلى الأبد. حتى حين عاد من المستشفى سالماً معافى لم يهرب منّي هذا الشعور، بل إنّه ازداد وتراكم أكثر مع الأيّام، وصرت أحسّ، تماماً، أنّني أرملة. أرملة دون أن أفقد زوجي، بل دون أن أتزوّج أصلاً، أو أعرف الزواج، كما ينبغي أن يكون.

وما استَعصى على قَوم مَنالٌ
إذا الإقدامُ كانَ لهم رِكابا

«لِلْمَهْ؟» سألتُ أبا عبد الله بعد أن قال بصوت حازم «مَافيش من الآن جامعة... يرتكبون الكثير من الأخطاء في علوم الشريعة ومنها أسلوب تدريس الحريم». لم نكن قد تحدَّثنا عن الدراسة، أو طلبتُ منه أن أذهب إلى التسجيل في السنة الجامعية الثانية. بادرني بقوله، و لم يجبني حين سألته لماذا؟ سوى بأربع كلمات: «على الحُرمة طاعة زوجها».

تذكّرت لحظتها فتوى الشيخ المروي، وربّما، لاحظ أبو عبد الله في ملامح وجهي وفي عينيّ أنّني غير مقتنعة بقراره، إذْ سرعان ما أضاف: «المسألة فيها خلاف بين علماء الدين وفقهاء الشريعة، وكثير منهم رأوا أنَّ تعليم الفتاة بعد سن التاسعة غير مستحب، لأنّها تصير حُرْمَة، مكانها الأصلي البيت لا تبارحه أبداً إلاّ إلى القبر».

كنت أعرف أنَّ المسألة فيها خلاف، حتى إنَّني أتذكّر، أيضاً، ما قاله أستاذ الفقه في أوّل محاضرة نسمعها له في الجامعة. يومها تحدّث أنَّ الرجل عادة يتباهى إذا ما كشفت له الأجهزة الطبّية أنَّ حُرمته ستنجب ذكراً، وهو لا يعرف أن الله لقادر على أنَّ يحوّل الجنين من ذكر إلى أنثى في أيّ لحظة. حين قال جملته هذه تمتمت طالبة بدت متململة «قد الأطبّاء يغيّرون جنس الذكر إلى أنثى والعكس». كانت هي نفسها فاتن التي صرت أعرفها لاحقاً. بالتأكيد، لم يسمعها الأستاذ

الذي واصل محاضرته، فتاويه بالأصح. يمكن استعادة ما قاله مما نقل عبر البلوتوث إلى التلفون النقّال.

شريط مُسجّل بتلفون نقّال (فتاوى2)

...

...

«لا يجوز الكشف عن الحُرمة الحامل سواء من قبل طبيب رجل أو طبيبة، فالكشف عنها هو كشف لحُرمة لا يجوز، إلاّ لمن كفر بالله. فإذا كانت حاملة بأنثى أو بذكر، قرّرت الأجهزة أنّه كذلك، وتحوّل بإرادة الله إلى أنثى، فالجريمة هنا، الجريمة تكون مضاعفة، تكون مضاعفة لانتهاك حُرمتين، الحُرمة الحامل والحُرمة الأنثى التي في بطنها. وقد توارثنا العادات الإسلامية الحميدة من آبائنا وأجدادنا وأجداد أجدادنا، وعرفنا أنَّ المرأة تظل حُرمة حتى بعد موتها، فلا نذكرها بالاسم، إلاّ ما لزم، لأنَّ ذكرها عَوْرَة وذهاب للحياء، والحياء من الإيمان، ولا إيمان لمن لا حياء له. من يتكلّم عن حريمه فقد ذهب منه الحياء، ذهب الدين منه... ...».

إضافة إلى هذا التسجيل، ما زلت أتذكّر ما كتبته يومها في كرّاسة مادة الفقه. كانت آخر جملة وصل إليها الأستاذ «الأنثى حُرمة قبل أن تولد وأثناء حياتها وبعد أن تموت».

...

...

أبا الزهراء قد جاوزتُ قدري
بمدحكَ بيدَ أنَّ لي انتسابا

فما عَرَفَ البَلاغَةَ ذو بَيان
إذا لَم يَتَّخذكَ لَهُ كتابا

مَدَحتُ المالكينَ فزدتُ قدرًا
وحينَ مَدَحتُكَ اقتَدتُ السَحابا

سَألتُ اللهَ في أبناءِ ديني
فإن تَكُنِ الوَسيلَةَ لي أجابا

صرت لا أبرح باب البيت. أمضيتُ وقتي في الكنس وغسل الثياب والطبخ. غالباً ما قمت بذلك وأنا أسمع الأشرطة القرآنية والدعوية، إلى جانب أداء الصلوات في أوقاتها، الصلوات الخمس الفرض، وصلاة الضحى وصلاة الوِتْر، وصلاة التهجّد، وكذلك صلاة الاستخارة الموصى بها في أوقات الشدة وتشتّت الذهن. أدّيتُ، أيضاً، صلاة الحاجة، التي سمعتُ أنَّ بعض العلماء نهى عنها واعتبرها بدعة. كنتُ بحاجة إلى أن أؤدّي هذه الصلاة. قلتُ لنفسي إنَّ الله لن تضيره صلاة زائدة إذا كانت غير واجبة. ألم تُسمَّ صلاة الحاجة؟

صلّيتها من أجل أن يلبّي الله حاجتي... سرّي... أن يقوّي زوجي لما فيه نعمة المعاشرة وسكينة البال. لم أكن أقوم بها أمام أبي عبد الله، بالتأكيد.

أحياناً، كنت أفتح التلفون النقّال الذي أهداني إيّاه أبو عبد الله وفيه تسجيلات صوتية كثيرة لمحاضرات إسلامية معظمها عن المرأة المسلمة

وواجباتها، بالإضافة إلى تسجيل صوتي كامل للقرآن وتفسيره، مع أدعية وأحاديث نبوية مختلفة.

لم أحسّ أنّني قد انشغلت، أو امتلأ وقتي بهذه الأعمال والأشياء، حتى الفراغ الذي كان يمكن ملء الوقت به، كان من الصعب إيجاده، أو الإحساس به.

بدا انقطاعي عن الدراسة وكأنّه انقطاع عن الحياة، مع أنَّ الجدران هي الجدران. هل سأصاب بالملل؟ بقيتُ أسأل نفسي، وأنا لا أعرف كيف يُصاب النّاس به؛ كيف يحسّون به. لو داهمني الملل وأحسستُ به، لكنت وجدت حلاً أو بعضاً منه. شعرت أنني لا شيء بين الأشياء. الأشياء نفسها بدت لي أنّها ليست أشياء، ليست شيئاً، ولو واحداً، على الأقل.

.

وجدتها فرصة لأنفِّذ مقترح لولا الذي قالت إنَّه كفيل بأن يجعلني أطعم الزيط ميط. ليلتها، ما إن أكمل أبو عبد الله صلاة التهجّد التي تسبق ساعة نومه حتى سجد مجدّداً وراح يدعو الله لينصر المسلمين، مع نشيج بكاء عال. لم أكن، قبل زواجي به، قد رأيت أسلوباً كهذا، تُخصَّص فيه سجدة من أجل الدعاء.

كان يخاطب الله، كلّ ليلة، وكأنّه يقدّم له تقريراً عمّا يجري في أفغانستان وباكستان والشيشان والصومال وفلسطين، داعياً إيّاه أن ينصر عباده المسلمين على القوم الكافرين. كانت هواجسي تأمل

منه أن يدعو الله، أيضاً، ليهبه الصحّة والعافية والقدرة على المعاشرة الزوجية، إلاّ أنّه لم يفعل.

صرتُ أحفظ أدعيته المعتادة، حتى حين تغطّت، تلك الليلة، ببكاء متهدّج بقيتْ مفهومة «ارحم عبادك يا الله ونجّهم من نيران القوم الكافرين، من جبروت القوم الضالين... انصر عبادك في بيشاور وتورا بورا على القوم الكافرين... اللهم أهلك النصارى واليهود ولا تولّهم علينا... اللهم اجتثّ منبتهم، وسلّط عليهم طيراً أبابيل، اهزمهم بجنودك التي لا تُرى، واغلبهم بجيش الإسلام، جيش محمّد، جيش المجاهدين في سبيلك... يا جبّار... يا قوي... يا مهيمن... يا متكبّر... يا منتقم... يا قهّار... يا كبير. اللهم، يا جبّار افتك بهم، ولا تبقِ منهم أحداً... يا الله ... يا الله... يا الله... يا مجيب الدعاء... يا ناصر عبادك... يا الله... يا الله... أجب دعوتي وحقق رجائي... يا الله... يا رب العرش العظيم».

بدا في حال رجاء، يتهدّج بكلمات مشحونة بالبكاء. لم أستطع من قبل أن أكون المبادِرة نحوه، أستلطفه وأداعبه، أو أحنو عليه وأضمّه لكي يستثار ويتهيّج ويحدث ما تظنّه لولا أنّه سيحدث، زيط ميط.

مددت يدي خلسة لأفتح علبة العطر الأبيض الموصوف بلبن العصفور. وضعتُ أكبر كمّية منه على رقبتي وصدري وتحت إبطي، وانزلقت من السرير متقرّبة إليه، ماسحة خلف رأسه الذي كان ما زال ساجداً «ما بك يا حبيبي... سينصرهم الله... إنّه السميع المجيب... سينصر عباده في أفغانستان ولن يخذلهم، هو القادر على كلّ شيء... تعال... هيّا قم وتربّع... تجلّد... تعال إلى السرير... تعال يا رَجُلي...

يا آمري وعزّي... تعال يا نصيبي من الدنيا... ارقد جنبي وضمّني إليك... اشحذ همّتك وفجّر قدرتك واشهر سيفك... هيّا تعال... قم».

قدته إلى السرير، لكنّه بدا كأنّه لم يسمع سوى كلمتين، فقط، مما قلته: ارقد جنبي.

.

.

بقيت علبة العطر مفتوحة إلى الليلة التالية، إلى الوقت المماثل؛ في اللحظة التي أنهى فيها صلاته ودعاءه الذي بدا، هذه المرّة، أقلّ تهدّجاً وأكثر تماسكاً.

«غداً سآخذكِ إلى منزل نائب أمير الجماعة، ستقابلين زوجته، ستقوم بتأهيلك لتقومي بدور تنصرين فيه دينك وتتقرّبين به إلى الله».

لم أقل شيئاً، وانتبهت حينها، إلى أنّ أصابعي كانت تمتد من تلقاء نفسها لتغطّي علبة العطر.

.

.

أشار أبو عبد الله إليّ أن أدخل الطابق الأرضي، أو ما سمّاه بجناح الحريم، فور وصولنا إلى منزل نائب الأمير. بقيت أدقّ الباب الذي حدّده لي فيما صعد هو سلّماً حديدياً يؤدّي إلى الطابق العلوي. حارس البوّابة الرئيسية غضّ بصره وهو يراني إلى جوار أبي عبد الله لكنّ الفتاة

التي فتحت لي الباب الداخلي ظلّت شاخصة نحوي، بحيث ظننت أنَّ هناك شيئاً غريباً، أو لافتاً، على الأقل، يبدو في هيئتي.

حين فَتَحَتْ الباب لم يكن يُرى منها أيّ شيء. جسمها، بما فيه عيناها، كان مغطّى بخمار وعباءة سوداء.

لم أتبيّن، إلاّ بعد أن أَغلقَت الباب وأزاحت جانباً من اللُّثمة عن وجهها، أنَّها كانت طفلة صغيرة لا يتجاوز عمرها عشر سنوات. كشفتُ لها، بدوري، عن وجهي، وقلت لها «ادْعِيْ لي أمّك، قُولِيْ لها مَرَة أَبو عبد الله جَتْ».

«تَقْصُديْ أم المجاهد... سأروح أكلّمها». عادت وطلبت منّي أن أنتظرها حتى تنتهي من مقابلة الحريم اللواتي كُنّ معها.

بعد أكثر من نصف ساعة، سمعت دقّات على الباب الداخلي؛ طلبت منّي الفتاة أن أغطّي وجهي قبل أن تخرج امرأتان من الغرفة الداخلية، مرّتا من أمامي صامتتين دون سلام أو كلام، متحاشيتين النظر إليّ.

أثارتني روائح العطور التي كانت تنبعث من ركن مواز، قريب من مجلس الشيخة أم المجاهد، حسب ما صرت أناديها مقلّدة الفتاة الصغيرة.

استغربت من بقاء الشيخة في لثامها. أزحتُ اللثمة من وجهي لأشجّعها، كما ظننت، على القيام بالمثل.

«أتكشفين وجهك هكذا وبسهولة؟ كيف ستجاهدين معنا، سألتك بالله، ونحن في مجتمع جاهلي كافر، علينا أن نحاربه ونعدّ له ما استطعنا من سلاح وقوّة، وقوّتنا في الحفاظ على التعاليم الصحيحة لشريعتنا؟»

ارتبكت، و لم أعرف كيف أبرّر لها ما عملته.

«شعرتُ بانجذاب نحوك منذ اللحظة الأولى... اطمأننتُ إليكِ وكأنّك أمّي فبعدت اللُّثمة». رفعت سبّابتها اليمنى منبِّهة، وكأنّها تضبط الكلمات الأخيرة التي سَمِعَتها: «يوم لا ينفع مال ولا بنون ولا أمّ ولا أب، ولا أخ أو أخت، لا تطمئنّي إلى أحد من أهلك أو أقاربك ولو كانت أمّك، وخلّي اطمئنانك كلّه يتوجّه إلى الله سبحانه وتعالى».

بدا لي من قولها هذا أنَّ من الصعب مجاراتها في الحوار. عليّ، كما قدّرتُ يومها، أن أصمت، أسمع وأطيع فقط. لم ينبِّهني أبو عبد الله إلى ذلك. في البداية عرفتُ وأنا أتهجّى أوّل الحروف في المدرسة الابتدائية أنَّ هناك ثلاث طاعات، طاعة الله ورسوله والوالدين، أمّا بعد أن تزوّجت فقد اختصرت الطاعات إلى طاعتين فقط: طاعة الله والزوج. بالأصح صارت طاعة واحدة، ففي طاعة الزوج طاعة لله.

أعدت إسدال اللثمة على وجهي، وأنا أحاول ترتيب بعض الكلمات لأبدو مطيعة لها: «شكراً... عافاكِ الله... أنا، ما أنا إلاّ طالبة الرضى من الله، وجئت لأتزوّد منك قوّة إيمانية أكثر، وإرشاداً يوجّهني إلى ما فيه نصرة لدين الله».

بدت أنّها تفهّمت كلامي، لهذا مضت تسألني عن كلّ تفاصيل حياتي: أسرتي، علاقاتي، صديقاتي، طفولتي، دراستي، هواياتي، ورغباتي، بما في ذلك سؤالي حول إذا كان أحد فتيان الحارة أو الأقرباء قد أعجبني قبل الزواج، وتمنّيت أن يكون زوجي.

الوجه الأوّل من الأغنية

...

...

سلوا قلبي... ... ...

... ...

... ...

سلوا قلبي غداة سلا وتابا
لعلّ على الجمال له عتابا

صارت زياراتي كثيرة إلى الشيخة أم المجاهد، مع هذا لم أر وجهها أبداً. ظلّت هي ترى وجهي في كلّ مرّة أجيء إليها لتتأكّد من هويّتي.

«عليكِ أن تذهبي كلّ يوم من الساعة الثامنة حتى الساعة العاشرة صباحاً إلى دار الكتب، هناك ستظلّين تقرئين في أرشيف الصحافة بعض الصحف والملاحق الثقافية التي تنشر المقالات المخالفة للدين، أحصي أسماء الكتّاب والمواضيع التي فيها، والكاتب الذي ترينه قد خالف في كتاباته الشريعة الإسلامية، خاصة إذا كتب عمّا يسمّى حرّية المرأة، اكتبي اسمه وحده ولخّصي موضوعه، وما هي الآراء المخالفة».

كانت هذه أوّل المهام التي تلقيتها من الشيخة أم المجاهد.

انسجمت مرّة مع المواضيع التي اقرأها فتأخرت ساعة في المكتبة. غضبت منّي، حين أخبرتها بذلك، و لم أدر سبب تحديدها لهذا الزمن

إلاّ حين قالت «بعد العاشرة يكثر حضور الموظفين الذين عادة ما يحضرون متأخرين، فيزداد الفضوليون السائلون عن سبب قراءتك للصحف و... و... ، لا تنسي قبل هذا كلّه أنَّ دورك الأساسي كحُرْمَة يبقى في البيت، وعليك في هذا الوقت العودة لتطبخي الغداء لزوجك».

.

.

ويُسألُ في الحوادث ذو صواب
فهل ترك الجمالُ له صوابا

تردَّدتُ عن إطلاع أم المجاهد على النتائج الأولى لبحثي. كان من غير المعقول، بالنسبة لي، أن أقول لها، أو أكتب في تقريري، أنَّ معظم الكتّاب الذين قرأت مواضيعهم مخالفون للشريعة الإسلامية. هذا يعني عدم صحّة قول رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: الإيمان يمان والحكمة يمانية.

لاحظتُ أنَّ شخصاً ملتحياً، بدا شديد التديّن، كان يجيء في الوقت نفسه الذي أجيء فيه، ويظلّ يبحث في مجلّدات الصحف التي كنت قد قرأتها، أو التي سوف أقرأها بعد أن أكمل المجلّد الذي ما زلت اقرأه. خفتُ أن يكون يراقبني، أو مكلّفاً للتدقيق والمراجعة بعدي.

احترت في شكل التقرير الذي عليّ أن أقدّمه. هل يمكنني أن أخفي بعض أسماء ومواضيع كُتّاب بدت نواياهم سليمة ولا يقصدون الكفر أو الخروج عن الشريعة؟ لكن، ماذا لو كانت مهمّة الشخص الملتحي

تتوافق مع مهمّتي، وأنَّ هناك من سيقوم، في الأخير، بمقارنة ما كتبته بما كتبه هو.

خطرت في بالي فكرة أن أجد عذراً لأحدّثه، ثمّ لأتقرّب إليه وأتعرّف إليه. هذه الفكرة نفسها لم ترحني من الخوف، بل أخافتني أكثر، فكيف سيتصرّف معي هذا الشخص إذا وجد أنَّ في حديثي إليه خروجاً عن الدين أكثر من تلك الكتابات التي قرأناها معاً؟ فكرت كثيراً و لم أجد لي طريقة أخرى سوى الحديث إليه. العذر الذي توصّلت إليه لبدء الحديث بدا لي مهولاً وفاعلاً، و لم يبق لديّ إلاّ القيام بالخطوة الأولى التي عليّ أن أتبعها بأربع أو بخمس خطوات أخرى لأكون في القرب منه، أمام الطاولة التي يضع فوقها مجلّدات الصحف وينقل ملاحظاته عنها إلى أوراق بيضاء مسطّرة.

«السلام عليكم ورحمة الله وبركاته أخي في الله».

رفع رأسه، لكنّه سرعان ما خفضه غاضّاً من بصره، كما بدا. «وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته» ردّ بصوت خافت أجش، ومرتبك.

«الله يحفظك يا أخي، بَسْ، أنا كنت أريد أن أسألك إذا كان لك أخت اسمها فاطمة؟ هي وضعت لديّ أمانة غالية قبل سنة في الجامعة، ومنذ ذلك الحين لم أرها. بعضهم قالوا ماتت والبعض قالوا تزوّجت وسافرت. في الحقيقة، أرجو من الله أن يغفر لي، فحين لمحت وجهك وجدت أنَّ هناك شبهاً بينك وبينها. أنا امرأة مسلمة متّقية الله وأتحاشى النظر إلى وجوه الرجال. لكنّني شعرت بأنَّ الله العليّ القدير قد وجّه نظري نحوك بإرادته، وتيقّنت أنَّ الله لا يخذل عبده المؤمن وهو يسعى

إلى ردّ الأمانة إلى أهلها». تدرّبت كثيراً على قول هذه الكلمات، حتى حفظتها، لكنّني لم أتحسّب للردود التي قد ألقاها. مع هذا، لا أظن أنّني كنت سأتوقّع ردّاً مثل الذي سمعته «نعم، فاطمة أختي، الله يرحمها، توفيت بعد فترة من دخولها إلى الجامعة».

«أوه... صحيح؟... مُش معقول؟» قلت مرتبكة، ليس لأنني تأكّدت أنّها ماتت، بل لأنّني فوجئت بوجود أخت له تُدعى فاطمة، وأنّها كانت العام الماضي في الجامعة نفسها، في سنتها الأولى، كما كنت أنا، وماتت قبل أن تكمل عامها الجامعي، أو اختفت فجأة، حسب قصّتي المؤلّفة.

«أنا مصدومة من الخبر... يرحمها الله... لا أستطيع أن أواصل الحديث معك الآن، إن شاء الله في مرّة قادمة سنتحدّث، يحفظك الله بسلامته». لم يردّ. انتابته، ربّما، غصّة، إذ تذكّر أخته المتوفاة فاكتفى بهمهمة غير واضحة.

...

وكنتُ إذا سألتُ القلب يوماً
تولّى الدمع عن قلبي الجوابا

لم تكن لديّ زميلة اسمها فاطمة، في السنة الأولى بالجامعة، ماتت أو اختفت فجأة. بقيت أشكّك في قدرة ذاكرتي وإمكانية ضعفها، ولكن ليس إلى هذا الحد من النسيان. ربّما درست بضعة أيّام قليلة وماتت. بعد تفكير طويل، قلت لأخي فاطمة «المرحومة العزيزة تركت لديّ أمانة

غالية وعزيزة لأنقلها إلى شخص محدّد وأعود لأنقل الأمانة التي سيحمّلني إيّاها إليها. صحيح أنَّ الأمانة غالية وعزيزة لكنّها ليست مادّية. إنّها عبارة عن كلام كان يفترض أن تسمعه منّي، و لم أعد أستطيع أن أقوله لأيّ أحد بعد وفاتها يرحمها الله. ستظلّ الأمانة، التي حمّلني إيّاها هذا الشخص ردّاً على رسالتها، سرّاً عندي حتى أموت». عرفتُ من هزّه لرأسه أنّه تفهَّم ما قلته، لكنّه ما إنْ أنهى بحركته هذه الارتباك الذي وقعت فيه، حتى نقلني إلى ارتباك آخر. «لصالح مَن تقومين بالبحث في الصحف. هل أنتِ طالبة أم باحثة؟» سأل. ومضت لحظة، وجدتني فيها أمسك مجلّداً آخر لصحيفة كان أمامه، وأقلّب صفحاته بشكل عبثي، غير مقصود، إلى أن قلت: «أنا طالبة. لكنّني أقرأ الصحف لأستفيد ممّا فيها، وليس للبحث. وأنتَ، هل أنتَ باحث؟».

«الصحف ليس فيها فائدة. فيها زُور وبهتان أنا طالب ماجستير في كلّية الشريعة بجامعة صنعاء، طَلب منّي أستاذ في الكلّية أن أقوم ببحث، كمتطلّب أوّل، عن الاتجاهات الثقافية للكتّاب والصحافيين ومدى اتفاقها وتعارضها مع الشريعة الإسلامية».

شعرتُ بالاطمئنان، وبدأت ألخّص تقريري، بتمهّل، متجاوزة بعض المخالفات الشرعية التي وقع فيها الكتّاب، وبدت لي أنّها غير مقصودة.

...

...

ولي بين الضلوع دمٌ ولحمٌ
هما الواهي الذي ثكل الشبابا

فوجئت، وأنا أدخل إلى الشيخة أم المجاهد بوجود ست نساء يجلسن على المفارش المغطاة بالسجاد، وقد بدأن كاشفات لوجوههن وشعورهن، في ملابس شفّافة وقصيرة، تكاد تغطّي القليل ممّا بين نهودهن وأفخاذهن. اثنتان كانتا مختلفتين، إحداهن طالت تنّورتها إلى ما تحت ركبتيها بقليل، والثانية لابسة قميصاً شفّافاً يغطّيها من كتفيها إلى أسفل ساقيها. حين سلّمت عليهن طلبت منّي أم المجاهد أن أخلع عباءتي وخِماري ولُثمتي، وأضعهن على المعلق بجوار عباءات وحاجيات النسوة الجالسات. شعرتُ بالحرج جدّاً وأنا أقوم بذلك، فلم تكن ملابسي الداخلية مميّزة أو جديدة لأستعرضها، حتى إنّها ليست نظيفة تماماً، فالقميص الداخلي هو نفسه الذي طبختُ فيه وجبة الفطور يومها، أمّا البنطلون فكان يُستحسن أن أغيّره، بعد أن بقيت ألبسه ثلاثة أيّام.

ثمّ،...

لماذا كلّ هذا التبرّج، وهي التي غضبت منّي حين أزحت اللثمة عن وجهي، في أوّل مرّة قابلتها؟ لماذا لا تعمل هي مثلهن، تزيح اللُثمة عن وجهها، على الأقل؟

«إلى هنا يكفي، غداً إن شاء الله نستكمل الدروس» قالت الشيخة وهي تشير بيدها إليهن، دون أن تنتظر جلوسي، مُريحة إيّاي، بذلك، من تخوفي ممّا قد تطلبه منّي معهن.

ناولتها، بعد أن خرجن، تقريري حول كتابات الأدباء والصحافيين. كنت قد مكثت خمسة أيّام، في البيت، لأرتّبه. لم يكن كثير الورق، لكن تردّدي هو الذي أخّرني. ظلّت عيناها محدّقتين إلى

الصفحات، فيما كنت أتفحص أشياء تناثرت بالقرب منها، بجوار صندوق حديدي مفتوح لا يزيد طوله على متر ونصف، وعرضه يقرب من متر إلاَّ رُبعاً. بدت الأشياء كأنّها أُخرجت منه: زجاجات عطر صغيرة السُّمك وطويلة، بأشكال مختلفة، عُلب ماكياج مختلفة الأحجام، قضبان بلاستيكية طويلة مُدوَّرة ومدبّبة، لم أكن قد رأيتها من قبل. وإذ لاحظت، أيضاً، وجود لمبة كهربائية بيضاء، مستطيلة وصغيرة السُّمك، فإن فكرة أضيئت في بالي، وكأنَّ اللمبة أرسلت إلى ذهني شحنة كهربائية كانت تخزنها: هل يعقل أنَّ كلّ هذه الأشياء تشبه شكل عضو الرَجُل؟ وما علاقة ذلك بهؤلاء النسوة وبدروس الشيخة لهن؟ «أوه... لم أعد أفكّر إلاّ به، بسبب حرماني منه»، برّرت لنفسي هذه الظنون، في الوقت الذي دخلت فيه الفتاة الصغيرة؛ لَمّت الأشياء إلى داخل الصندوق وأغلقته، قبل أن تسحبه إلى غرفة بدا أنَّ بابها غير مرئي، شُقَّ من جدار الغرفة التي نجلس فيها، وغُطّي بديكور لا يَكشف عنه.

نهرت الشيخةُ الفتاةَ عن تأخرها في أخذ الصندوق وإدخاله، ثمّ التفتت إليَّ: «ما هذا... خمسة كُتّاب، بَسْ، خمسة بَسْ مخالفون للشريعة... ألم تقرئي وتدقّقي، أم أنّك تجهلين أصلاً ما هي الشريعة؟».

«لقد دققت يا سيّدتي الشيخة. لا يوجد غير هؤلاء. أنتِ تعرفين أنّنا في بلد الإيمان والحكمة كما وصفها صلّى الله عليه وسلّم».

حركة رأسها المتواصلة أنبأتني بغضبها.

«أنتِ جاهلة. قول الرسول صلّى الله عليه وسلّم كان عن اليمنيين القدامى، المؤمنين، مُش هؤلاء الكفرة الذين يعيشون في هذا الزمن.

في آخر الزمن. ألم تسمعي عن حديث النبي حول المسلمين في آخر الزمن، وأنّ القابض على دينه سيكون كالقابض على الجمر؟»

«أيْوَه... أيْوَه... حافظة للحديث».

لم تدعني أبرّر أكثر؛ أخرجت رزمة من الورق كانت تحت الفرش الذي تجلس عليه: «ها... شُوفي هذا التقرير، كيف هو مضبوط، عن الكُتّاب الكفرة».

لم تناولني التقرير لأقرأه، لكنّني لاحظتُ بعض العبارات المدوَّنة على صفحته الأولى. في أعلى الصفحة كُتب بخطّ يد غير واضح: «شعبة شؤون جماعات المجاهدين: للاطلاع وعمل اللازم»؛ وتحتها رسالة مطبوعة، لمحت أنّها معنونة إلى مسؤول في جهاز الأمن السياسي، لم أتحقق من اسمه. وفي بدايتها إشارة: إنّ هذا البحث تم بناءً على طلبكم، وقد كلّفنا الأخ أبو مصعب بإنجازه. وإذْ راحت عيناي إلى أسفل الصفحة، وجدتها موقّعة باسم الأستاذ الدكتور أبو جهاد وصفته الأكاديمية في جامعة صنعاء.

هل يمكن أن يكون أبو مصعب هو نفسه طالب الماجستير الذي وجدته يبحث في الصحف مثلي في دار الكتب؟ لقد قال لي إنّ اسمه هكذا، لكنّه لم يذكر لي اسم أستاذه الذي كلّفه. هل أبو جهاد هو اسمه الرمزي، أم اسمه التنظيمي السرّي الذي يتعامل به مع جهاز المخابرات؟

بقيت الشيخة تنتظرني، كما بدا، أن أخرج عن صمتي.

«شُوفي... شُوفي على دقّة... كلّ الكتّاب والصحافيين الخارجين عن الشريعة مسجّلين هنا، مع ملخّص ومقتطفات لما كتبوه...

شُوفي... شُوفي... هه». قالت، وقلبت الصفحة الأولى، لأرى المفاجأة، في الصفحة الثانية. إنّه الخط الذي قلت لنفسي، حين رأيته أوّل مرّة، أن لا خطّ يماثله، إنّه خط أبي مصعب نفسه الذي يشبه الخطوط القديمة التي كُتب بها القرآن الكريم.

هل يتعامل الأستاذ الجامعي مع المخابرات وحده، فكلّف أبا مصعب بهذا البحث، كمتطلّب دراسي، دون أن يخبره أنّه متطلّبٌ، أيضاً، لجهاز المخابرات؟ أم أنَّ أبا مصعب هو أيضاً يتعامل مع المخابرات؟ [أستاذه يذكر في رسالته إلى رئيسه في المخابرات أنّه كلّف أبا مصعب، ما يعني أنّهم يعرفونه؛ لكن معرفتهم به هل تعني أنّه يتعامل معهم؟ ألا يمكن أن يكونوا قد استغلوا ثقافته الجهادية السلفية للقيام بمثل هذا العمل؟] وإذا كان الاثنان كذلك، أو أحدهما، فما الذي أوصل التقرير إلى الشيخة؟ هل يعمل أحدهما مزدوجاً مع المخابرات والجماعة الجهادية، أم أنَّ مخابرات الأمن السياسي نفسها مزدوجة، فتنسخ تقاريرها إلى الجماعة الجهادية لتحرّضها على الكُتّاب باعتبارهم كفرة؟

«ما العمل الآن. كيف أتصرَّف معك. ما هو الحل برأيك؟» قالت الشيخة.

لم تتح لي أن أرى ما كُتب في الورقة. كانت شديدة الانفعال، وتحرّك بيديها الأوراق كثيراً.

«الخيار ما اختاره الله... اعملي ما يسخّرك الله ويهديك إليه» قلت لها وأنا أمضي بإحساس أنّني قد لا أراها مجدّداً.

...

...

تسرّبَ في الدُموعِ فَقُلتُ: وَلى
وَصَفَّقَ في الضُلوعِ فَقُلتُ: تابا

أمضيتُ أسبوعاً دون أن أذهب إلى الشيخة أمّ المجاهدين. أبو عبد الله كان يصحو مبكراً ويخرج من البيت ليؤدّي صلاة الفجر في المسجد، ولا يعود إلاّ بعد صلاة العشاء. بعد ترديدي، مرّات عديدة، لسؤالي له عن سبب عودته كلّ مساء وهو مغبر ومنهك، أجاب: «نتدرّب من أجل الاستعداد للجهاد في سبيل الله». يومها أضاف: «حَرم الشيخ نائب الأمير تطلب مجيئك إليها غداً».

وَلَو خُلِقَتْ قُلوبٌ من حَديد
لَما حَمَلَتْ كَما حَمَلَ العَذابا

بيّنت أم المجاهد لي أنَّ تكليفها لي هذه المرّة ليس صعباً، إذْ عليّ، فقط، القيام بزيارات عائلية لبعض أسر الحيّ الذي أسكن فيه، والحيّ المجاور له، أحضر أفراحهم، ومناسبات العزاء والولادة، ثُمّ أصف ما أراه في تقارير مكتوبة وبدقّة «لو استطعت الدخول حتى إلى غرف النوم فافعلي، واكتبي كلّ ما ترينه من أشكال عطور ومباركاتها، ملابس النوم والماكياجات. ماذا يشاهدون في التلفزيون وأشرطة الفيديو؟ ماذا يقرأون؟ أسماء المدارس التي يُدرّسون فيها أطفالهم؟ أنواع الملابس؟ أكلهم؟ شربهم؟ كيف يحيّون بعضهم: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، أم السلام عليكم فقط، أم هم يقولون: صباح الخير ومساء الخير؟» قالت، وناولتني مُسَجِّلة صغيرة جدّاً لأُسجِّل بها كلّ التفاصيل، بالصوت والصورة، إذا أمكن.

بدت لي في البداية بعض المعلومات غير مهمّة. فيكفي مثلاً أن أعرف أنَّ شخصاً يقول: صباح الخير لأعرف أنّه غير متمسّك بتحيّة الإسلام كاملة: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته؛ ولأنّه غير متمسّك بتحيّة الإسلام فهو غير متمسّك بأسس الشريعة الإسلامية كاملة. لكن أم المجاهد كشفت لي، مع الأيّام، الأهداف العديدة من وراء المعلومات الأخرى.

«لا تكفي معلومة واحدة، فقد تستخدم أخت مؤمنة قانتة مضارب العطر، التي هي على شكل ذَكَر، في العادة السرِّية، خشية أن تزداد غلمتها وتسقط في خطيئة الزنا، وقد تستخدم مضارب العطر حُرمة أخرى، لممارسة العادة السرِّية إذا كان زوجها لا يشبعها، وهذا يعني أنَّها يمكن أن تخونه إذا هي غير ملتزمة بالشرع، فنكتشف طبيعة العلاقة بين الحُرمة وزوجها، وكيف نستطيع أن نؤثّر عليهما، ليهتديا إلى الإسلام، أو على الأقل يهتدي واحد منهما، أو من الأطفال، ونحرِّضه لمحاربة مظاهر الكفر في البيت».

رأيتُ الأمر صعباً. بالأصح شعرتُ ببعض المهانة وأنا أحاول التقرب إلى الأسر بدون مبرّر يقنعها. مع هذا، مضيت في العمل. اقتنعت بأنّه واجب جهادي في سبيل الإسلام، في سبيل تطبيق الشريعة المحمّدية.

بقيت شهرين على هذا النحو، أنتقل من بيت إلى بيت: ركّزت، كما طُلب منّي، على بيوت المثقّفين والمثقفات وأُسر الشخصيات المعروفة، حتى وصلت إلى أُسرة وزير. حين نجحت في التعرّف إلى عائلة مُقرَّبة من الرئيس طلبت منّي الشيخة أن أوافيها بكلّ المعلومات

التفصيلية عن هذه العائلة، وكيفية الاتصال بأفرادها.

وإذْ قمت بما هو مطلوب، جاءت الشيخة بفتاة لتقابلني وتستفهم منّي أكثر. ثمّ طلبت منّي أن أقدّمها إلى هذه العائلة على أنّها أختي، وهو ما تم. ولا أدري لماذا شعرت حينها بأنَّ عليّ أن أتوارى مفسحة المجال لمن حملت صفة أختي في القيام بالمهمّة.

...

...

وَلا يُنبئكَ عَن خُلُقِ اللَيالي
كَمَن فَقَدَ الأَحِبَّةَ وَالصَحابا

كان قراراً مفاجئاً بالنسبة لي، لكنّني وجدته مناسباً، وأكثر فاعلية من قيامي بالتجسّس على العائلات. يومها انفعل أبو عبد الله وهو يأخذني إلى الاستوديو لأتصوّر من أجل طلب جواز السفر «سنروح إلى أفغانستان نحارب مع المجاهدين، ننصرهم في وجه الكفّار الصليبيين. بعدها سنعود إلى هنا، نحارب هذه الدولة الكافرة التي تشترط تصوير الحريم والرجال لجوازات السفر والبطاقات الشخصيّة، وهو مُحرَّم شرعاً».

حين ذهبت لزيارة أبي وأمّي عرفتُ أنَّ عبد الرقيب سبقنا إلى جبهة الجهاد. اختار أن تكون وجهته الشيشان ليحارب هناك مع المسلمين ضد الشيوعيين الروس.

...

...

فمَن يغترَّ بالدنيا فإنّي
لَبِستُ بِها فأبلَيتُ الثيابا

حصلنا على فيزا دخول إلى السعودية. لا أعرف كيف كان ذلك؟ ليس عليّ أن أسأل فأنا حُرمة، وهذا الأمر، كلّ الأمر للرجال. قال أبو عبد الله إنَّ الرياض ستكون محطّتنا الأولى في طريقنا إلى أفغانستان.

بقينا أربعة أيّام في الرياض. تعرّفنا إلى بعض العائلات السعودية اللواتي جئن لزيارتي في الفيلّا المخصّصة لإقامتنا. في اليوم الأوّل جاءت خمس منهن، توافدنا إلى المكان بعد صلاة العصر. أمّ محمد، كما عرّفتني باسمها، تكفّلت بتعريفي إليهن. «كلّنا من حريم المجاهدين الذين راحوا إلى أفغانستان. أمّ القعقاع وحدها، ما زال زوجها هنا» قالت وأشارت إلى شابّة بدت بكامل أناقتها، تكسو جمال وجهها اللافت بهجة مخلوطة ببعض قلق. «هي أصرّت، هداها الله، على أن لا يذهب للجهاد إلاّ وهي معه. ما زالا عريسين جديدين» أضافت وهي تبتسم.

تردّدهن لزياراتي خلال تلك الأيّام جلب لي الكثير من الهدايا. في أحد الأيّام جاءت مع أمّ محمد ابنتها التي لا يزيد عمرها على السابعة عشرة. ظلّت الفتاة صامتة طوال الوقت سوى مرّة رأيت ابتسامة فاترة ساخرة على شفتيها فيما كانت أمّها تتحدّث. حين قمنا بأداء صلاة المغرب جماعة، اصطفّت الفتاة إلى جواري، فلاحظتُ أنّها لا تعبأ بأداء الصلاة على أكمل وجه. لم أنبّهها، حتىّ حين لم تحرّك رأسها للتسليم في نهاية الصلاة.

أكثر الأوقات بقين يتحدّثن عن الفتاوى المثارة في الصحافة حول

تحريم سواقة المرأة للسيارة، وجواز اختلاط المرأة بزميلها في العمل بعد أن ترضعه.

في كثير من كلامهن كُنَّ يردِّدن: إحنا الحريم... واجب على الحريم... خلق الله الحريم... هيّا يا حريم... أنا حُرمة مجاهد...

أدركتُ أنَّ استخدام أبو عبد الله للفظة الحريم، كثيراً، جاء ربّما من مكوثه في السعودية تسع سنوات. سافر إليها، كما قال، وعمره ثلاث عشرة سنة مع أحد أقاربه الذي ترجّته أسرته أن يلحقه في جوازه بصفته ابناً له ويأخذه معه لكي يعمل. ورغم عمره الصغير عمل منذ وصوله في محل ملابس للرجال حتى عاد إلى اليمن وهو في الثانية والعشرين بمهمّة من جماعة جهادية. تخلّى عن عائلته في اليمن، بعد أسابيع من تردّده عليهم، لأنّهم لم يطاوعوه في دعوته للتخلي عن المعاصي، كما قال. وقتها تزوّجني بعد تعرّفه إلى عبد الرقيب.

كانت في الفيلاّ هندية لطيفة تقوم على خدمتي. بقيت أنديرا، كما ينادونها، تؤانسني معظم الوقت الذي بقيت فيه بالرياض، باستثناء ساعات الليل المتأخرة التي يأتي فيها أبو عبد الله. قالت إنَّها أعلنت إسلامها قبل سنتين. وجدتها فرصة لأسألها عمَّا سمعته عن عبادة الهنود للأبقار والحيوانات.

حدثتني بارتياح وكأنها فرحت لسؤالي، أو كأنَّها فرحت لما ستتذكّره وتقوله. قالت إنَّها رموز دينية مقدّسة وراءها قصص كثيرة، وتحدّثت بلهجة عربية مكسّرة وكلمات إنجليزية شارحة، حول تقديس الهنود لكل ما هو حيّ.

لم أعد أتذكّر ما قالته، سوى أنَّها تعلّمت من زوجها أنَّ الإيمان

يكون بتمثلنا لله «علينا أن نتمثّل الله بسلوكنا بدون خوف من عقابه أو انتظار جزاء منه. إذا كنّا ننتظر فائدة من خلال تنفيذنا لتعاليم الله، أو نقوم بها خوفاً من عقابه، فنحن لم نبلغ مرتبة الإيمان».

رأيتُ في عينيها حنيناً جارفاً لماضيها أو، ربّما، لعائلتها. أثارتني كلماتها و لم تفارقني حتى صحوت على استذكارها: «إذا كنّا ننتظر بسلوكنا فائدة من الله أو نخاف عقابه فنحن لم نبلغ الإيمان».

قلتُ: أعوذ بالله. لكنّني سرعان ما ندمت على قول هذه التعويذة، فرغم قولي لها بصوت خفيض، ظننت أنّ أنديرا قد أحسّت بها. حاولتُ أن أبعد تأثيرها فيّ فظللت أقول: هم كُفّار، هم جاهلية، هم مشركون هم... تجهّمتُ أمام المرآة، محاولة أن أبدو بشخصية أخرى، غير متسامحة في ما يمس مسألة التوحيد والعقيدة؛ إلاّ أنّ أنديرا في اللحظة نفسها دقّت الباب. دخلت بابتسامتها الحنونة، وكأنّها كُلّ الأمهات، كلّ الأطفال وكلّ أبقار الهند الطيّبة.

...

...

جَنَيتُ برَوضِها وَرداً وَشَوكاً
وَذُقتُ بكَأسِها شَهداً وَصابا

في عصر اليوم السابق لمغادرتنا الرياض ذهبت أنديرا مع إحدى النسوة الزائرات بعد أن أشارت إليها بأن تتبعها.

بقيتُ وحيدة سوى من التلفزيون الذي يمكن وصفه بالتلفزيون الإسلامي، حيث لم يكن يعرض سوى قنوات متخصّصة بقراءة القرآن

وبتفسيره وبالسنّة النبويّة والفتاوى الدينية وبالأسرة المسلمة.

بعد فترة من التنقل بين القنوات قمت لأداء صلاة المغرب، وحين عدت توقّفت عيناي لتشاهدا قناة المرأة المسلمة التي كانت تناقش فتوى إرضاع الكبير الصادرة من شيخ مصري يرأس قسم الحديث النبوي بجامعة الأزهر، نسيتُ اسمه، قالت المذيعة إنّه أفتى بأنَّ المرأة إذا اضطرّت إلى مقابلات ومسايرات رجل، من غير الأقرباء المحارم الذي يجيز الإسلام الظهور عليهم، فإنَّ بإمكانها أن تُرضع هذا الشخص من حليب ثدييها ليصبح قريباً أو محرْماً لها بالرضاعة، يجوز لها الظهور عليه أو الاختلاط به في العمل. بدت الشيخة أمّ القواسم، التي تردّد اسمها كثيراً مع أسئلة المذيعة الجالسة بجوارها، متحمّسة جدّاً للفتوى. قالت إنَّ الفتوى استندت إلى حديث نبوي جاء فيه أنَّ سهلة بنت سهيل شكت للنبي محمّد صلى الله عليه وسلّم كُرْه زوجها أبي حذيفة دخول مولاه، أيْ خادمه، سالم عليها، وهو قد بلغ مبلغ الرجال؛ فوجّهها النبي إلى أن ترضعه لتُحرم عليه». كان البرنامج يذاع عبر الهواء مباشرة ويستقبل آراء المُشاهِدات وأسئلتهن عبر التلفون. هل هي قناة مُشفّرة خاصّة بالنساء، من تلك القنوات التي سمعت عنها؟ لقد شاهدتها بدون كلمة سِر. ربّما تركها القائمون على المنزل هكذا. أبو عبد الله خرج والتلفزيون يبث آياً من القرآن وكانت أنديرا قد علّمتني كيف أُغيِّر القنوات. شدّتني جرأة الآراء والأسئلة من قِبل بعض المتّصلات إلى البرنامج، ولولا أنّهن كُنَّ يستشهدن في أحاديثهن بآي من القرآن وأقوال النبي صلّى الله عليه وسلّم لشككت بإسلامهن. إحدى المتّصلات قالت مندهشة: بارك الله بشيخنا الجليل

الذي كشف لنا أنَّ الشريعة الإسلامية قادرة على حلّ كل المشكلات، ومنها مشكلة الاختلاط بين الجنسين. ووافقتها المتّصلة التالية، وقالت إنّها ستقوم في الغد بإرضاع زملائها في العمل، لتختلط معهم بدون الشعور بالخطيئة الذي كان يقلقها من قَبل.

واحدة من المتّصلات رأت الفتوى رائعة، لكنّها قالت هل تستطيع أن ترضع سائق سيّارة الأسرة الإثيوبي ليصبح من المحارم، وهو مسيحي غير مسلم؟

وهنا بدا في صوت الشيخة أم القواسم الارتباك، وظلّت تحوم من بعيد حول السؤال دون أن تقدّم إجابة واضحة، مع أنّها في كلّ كلامها السابق كانت تجيب بعبارات قاطعة تقولها بشكل يقيني وجزمي باعتبارها من شريعة الله.

مع هذا بدت المذيعة وهي تهز رأسها أثناء سماعها للإجابة وكأنَّ الشيخة قد أوضحت للمُشاهدة الجواب الأكيد عن سؤالها. ثُمّ سرعان ما قاطعتها وانتقلت لتتلقى الاتصال التالي من مُشاهدة عرَّفت نفسها بـ أم معاذ. المُتَّصلة الجديدة لم تخرج الشيخة، أو المذيعة، من متاهة الإجابة، وإنَّما أدخلت معهن، أيضاً، كلّ المُشاهدات في متاهات أسئلة لا أجوبة لها: هل تُرضِع المرأة الرجل من ثدييها مباشرة، عبر مصّه لحلمتيها، أم تقوم بحلب الحليب وتقديمه له عبر وعاء ليشربه؟ ألم تذكر في الفتوى كلمة إرضاع لا سقي أو شُرْب؟ وكيف كانت العملية تتم أيّام النبي؟ إذا كانت المرأة غير متزوِّجة أو لا يتوفّر الحليب بثدييها، فماذا تعمل؟

لم يكن يظهر من جسدي الشيخة والمذيعة سوى بصيص ضوء

صغير في وجهيهما يشير إلى فتحات العيون، مع ذلك بقي صوتاهن واضحين، فيما حركة الكاميرا سريعة التنقل من زاوية إلى أخرى.

فضّلت المذيعة أن تتلقى اتصالات جديدة، قبل أن تجيب الشيخة عن الأسئلة السابقة، طالبة منها، وقد بدت متحمّسة للرد، أن تجيب بشكل جماعي. كان هذا أفضل بالنسبة لي، وربّما لبقيّة المُشاهدات، إذ استمعت بعدها إلى أسئلة طريفة من عدد من المُتّصلات: هل تجوز مصافحة المرأة للرجل الذي أرضعته؟ إذا كانت هناك امرأة تركب كلّ يوم سيّارة تاكسي، وليس لديها سيّارة، فهل ترضع السائقين كلّ يوم؟ كم عدد الرضعات الواجبة على الرجل؟ وهل يمكن استخدام مصّاصات رضع لسحب الحليب من بعد؟ لو أحد الأزواج داعب زوجته بمصّ حلمتيها وأثناء ذلك دخل حليب منها إلى جوفه، فهل تُصبح محرَّمة عليه؟ إذا اختلت امرأة برجل أرضعته، فكيف تتعامل مع هيئة الأمر بالمعروف إذا داهمتهما مختليين؟

أجابت الشيخة عن الأسئلة، كيفما اتفق، وبعبارات غير مقنعة، تهيّأ لي أنّها لم تكن لديها معرفة كافية بالموضوع، رغم نبرة صوتها الذي يظهرها واثقة من أحكامها الدينية التي تقولها، وإن كان من الصعب اعتبارها أحكاماً. ما زاد في زيادة الجدل أنَّ متصلتين رفضتا الفتوى جملة وتفصيلاً واعتبرتاها مسيئة للإسلام. و لم توافقهن سوى متصلة خاطبتها المذيعة بالشيخة، قالت إنَّ الفتوى عبارة عن أخبار آحاد تخالف صريح القرآن، وإنَّ الأزهر قد فَصل صاحبها من منصبه. متصّلة تجنّبت الشيخة التعليق عليها، إذْ بدت ساخرة من الفتوى: «أنا اتَّبعت الفتوى وطلبت من السائق أن يدخل معي البيت ليرضع منّي

فناولته الثدي الأوّل وبقي يمص ويمص ويمص دون أن ينزل حليب، ثمّ ناولته حلمتي الثانية فبقي يمصّها أكثر من الأولى، ولكن بدون أن ينزل حليب. طلع السائق ابن حلال واقترح أن يمص ويلحس في أماكن أخرى لعلّ جسمي ينشط ويدر الحليب، وكان له ما أراد، فانسكب الحليب من كل فتحات جسمي سوى من الثديين، غمّس السائق لسانه في الحليب حتى شبع وصار من يومها يدخل البيت وقتما يشاء».

القضيّة كانت ساخنة وبدا لي أنّها لن تنتهي رغم مرور ساعة ونصف منذ بدأت أشاهدها. لم أكمل متابعة ما تقوله الشيخة، إذْ تحرّك مفتاح الفيلاّ في فتحة الباب ليدخل أبو عبد الله لابساً بشكل لافت ومختلف عن ملابسه التي خرج بها ظهر ذلك اليوم. لم يتح لي فرصة أن أسأله عن سبب تغيّر ملابسه. طلب منّي أن أغمض عينيّ في ابتسامة لم أر مثلها من قبل على شفتيه. لم أر في الحقيقة ابتسامة، قط، على شفتيه، أو سروراً ظاهراً في ملامح وجهه.

أغمضت عينيّ وأنا أتذكّر لقطة مشابهة في فيلم أميركي شاهدته في منزل خالتي وأنا في الثالث الإعدادي: يطلب رجل من امرأة تجلس إلى جواره أن تغمض عينيها، وحين تفعل يخرج من جيبه هديّة ويقول لها: افتحي عينيك، فتُفاجأ بعقد من حبّات اللؤلؤ ينتهي بمثلّث شفّاف، ربّما من الذهب الأبيض، كُتبت عليه عبارة you are my desire. شعرتُ بأنّ أبا عبد الله تحرّك نحو الباب الذي أبقاه موارباً. «افتحي عيونك لتري المفاجأة».

تعبيره كان سليماً تلك الليلة، فلم أفتح عينين اثنتين من إغماضهما، بل تفتّحت في جسمي عيون لا تحصى حين وجدت أمامي امرأة بفستان

عُرس مُدهش لم أر مثله من قَبل. ارتبكتُ و لم أعرف ماذا أقول. لم أفهم لحظتها، حتى إنَّني ظننتُ للحظة أنّها عروس دُمية، من لحم ودم، دُمية غير مألوفة، تُمثِّل آخر صرعة أو موضة في عالم الدُمى. تشابكت خطواتي واضطرب جسمي إلاَّ أنَّ عينيّ، بل عيون جسمي كُلّها، بقيت مفتوحة على آخرها، شاخصة إلى أوّل هديّة من أبي عبد الله.

«هي أنديرا... أنديرا» قلتُ لنفسي متيقّنة وأنا أدقّق في ملامح المرأة التي بدت واضحة ومألوفة خلف الرداء الأبيض الشفّاف الذي يغطّي وجهها.

مضت لحظات لم أفهم خلالها ما الذي يحصل. تشاغلتُ بترتيب الوسائد والمِخدات في الصالة المواجهة للباب، أمسك مخدة بيد وأخبطها باليد الأخرى. أتذكَّرُ ذلك، تماماً، كنتُ كمن يُنفِّض الغبار عن المخدات.

بالضبط، كما تعمل أمّي؛ مع أنَّ المخدات في الرياض كانت بلا غبار.

حين استوعبت، فجأة، ما يحدث أمامي ثارت كلّ أعضائي غضباً. بتلقائية امتدّت يدي نحوه، لكنني سرعان ما تحكّمت بها. لم أكن أريد أن أصفعه فقط، بل شعرت بأنّني أريد أن أنسفه تماماً، كتلك القنبلة التي انفجرت في الفيلم الأميركي الذي شاهدته. بدا جسمي، كُلّ جسمي، كقنبلة أشعل هو فتيلها وكادت تنفجر به وبهديته التي جلبها. ما لا أتصوّره هو إمكانية إيقاف انفجار قنبلة بعد أن تُشعل. حدث ذلك بعد أن وضعت أنديرا يدها على كتفي فيما ابتسامتها تزداد اتساعاً بشكل صرت آلفه. ارتخت أعصابي وتفكّكت قواي. لم يكن عليَّ أن أتنازل عن سرير الزوجية لعروس زوجي، كما يتوقّع

من امرأة ترضى بشريعة الله التي تعطي الرجل حقّ الزواج بأربع نساء، فقد كانت هناك غرف نوم أخرى مجهزة.

...

...

حين أُذّن لصلاة الفجر من المساجد اغتسل أبو عبد الله وذهب إلى المسجد المجاور للفيلاّ ليصلّي جماعة. توضّأت، وانتظرت خروج أنديرا من الحمّام الثاني لنصلّي جماعة.

لم أنم طوال الليل، أبقتني نار الغيرة مستيقظة. حاولتُ أن أتنصّت عليهما لأعرف ماذا يعملان، لكنّني لم أسمع ولو همسة. في كلّ لحظة كنتُ أسأل نفسي: على ما الغيرة؟ وسرعان ما أنسى الجواب الذي أعرفه. كان يكفي أن أتخيّل أنّهما ينامان متقاربين في سرير واحد لتتفجّر المشاعر الغاضبة.

«أدام الله السرور...» قلتُ للعروس وأنا أراها مُقْبِلة إليّ.

بدت لي أنديرا، دائماً، مبتهجة أو في حال ابتسام، مبتسمة وإن لم يبن ذلك على شفتيها. ليس هناك من كلمات بإمكاني التعبير بها عن حجم السعادة أو البهجة التي تبدو من داخلها، مع هذا لا يمكن القول سوى أنّها كُتلة من السرور.

رغبتُ في أن أسألها كيف أمضت ليلتها، لكنّني لم أجرؤ.

...

...

جلستُ مع أنديرا على مقعدين متجاورين في الطائرة، فيما جلس أبو عبد الله في الجهة المقابلة وإلى جواره أحد الركّاب. اكتشفت أنَّ كُلّ أوراق سفرنا استُخرجت في الرياض بأسماء وهويّات سعودية، غير تلك التي حملناها من قبل، بما في ذلك اسم أنديرا الذي تحوّل إلى عائشة الغامدي. لم نخضع للتدقيق كثيراً أثناء مغادرتنا.

شعرتُ ونحن نغادر الفيلاَّ في الرياض أنّني مغطاة بالذهب الذي جاء به أبو عبد الله: أقراص، شبكات، أساور، خلاخل، لوازم، عقود، خواتم ملء الأصابع وساعة وتيجان وأحزمة، بأوزان كبيرة وأسعار غالية. صرتُ مثقلة بالذهب، كأنَّه ثوب ثقيل يكسوني.

لقد بدت أنديرا مساوية لي بما تحمله من ذهب يغطّي معظم جسمها. الحقيبتان اللتان سُجّلتا باسمها والمليئتان بالماكياجات وقوارير العطور بأحجامها المختلفة وزجاجاتها الغامقة لم تختلفا، كما بدا لي، عن الحقيبتين اللتين سجّلهما أبو عبد الله باسمي سوى بلونيهما البرتقالي والبنّي، أمّا الأوزان فكانت متطابقة. كُلّ واحدة منّا كانت لديها حقيبتها الخاصة، أيضاً، إلاَّ أنَّهما لم تلقيا اهتماماً من أبي عبد الله كاهتمامه بالحقائب الأربع الأخرى.

فرحتُ حين لبستُ الذهب ورأيتُ العطور والماكياج. لكن سرعان ما تراجعت، إذْ رأيت أنَّ الذهب والتزيُّن، لا يتوافقان مع رحلة للجهاد. هي أشياء لامرأة الزينة، لحُرمة في بيت. «ما المشكلة؟ أنا مجاهدة... هذا صحيح... لكنَّني حُرمة عليّ أن أتزيَّن وأتعطّر وأتمكيج» قلتُ لنفسي بعد تفكير.

أصرّ أبو عبد الله على أن ألبس كلّ الذهب، لكنّه حذرني من أن

أفتح أي قارورة عطر أو علبة ماكياج. كانت هناك مكحلة، بدت في خرقة بالية، أشار إليها وقال: «انتبهي».

...

...

«الزواج حِلوْ مُشْ كِذَهْ... حلو الزواح هه؟» قلت لأنديرا والطائرة تستعد للإقلاع من مطار الرياض.

«حِلوْ... حِلوْ... الزَوَجة حِلوْ» قالت. حاولتُ توضيح قولي: «الزَّواج... الزَّواج حِلوْ... الزّوجة أنتِ... أنتِ زوجة حُرْمة... هُوْ زوج رجُل... مفهوم... الزواج اثنين سوا... حُرمة رجُل في زواج واحد... مفهوم».

«يعني كِذَهْ كِذَهْ... كِذَهْ... رجُل حُرْمة هو زُوج سوا سوا» قالت مع ضحكة خافتة، لتضيف وهي تعلو في الضحك أكثر «كُلُّهْ زِجْ زِجْ... رجُل حُرمة سوا سوا... كُلُّهْ زِجْ زِجْ».

«إيشْ هو زِجْ زِجْ... أنا مُشْ فاهمة؟»

استعادت ضحكتها الخافتة حين سمعت سؤالي.

«إنْتَ مُشْ فاهم؟... مُشْ ممكن إنْتَ زِجْ زِجْ مُشْ فاهم» قالت وهي تدخل الأصبع الوسطى بيدها اليمنى في دائرة كّومتها من أصابع يدها اليسرى.

«أهّا... زِجْ زِجْ هو زِيطْ مِيطْ» قلتُ لها وأنا أستعيد تعريف لولا للفعل نفسه، ربّما.

«زِجْ زِجْ... مُشْ فاهم أنا زِتْ مِتْ» قالت وراحت ترتّب لعبارة،

تظنّها، أكثر فهماً لديَّ: «إنْتَ أبو عبد الله... جِيْبُهْ هو إنْتَ سوا سوا زِجْ زِجْ». وكما فعلت من قبل، أعادت تشكيل أصابع يدها اليسرى كدائرة وقامت بإدخال وإخراج الأصبع الوسطى بيدها اليمنى فيها بسرعة.

صرتُ متأكّدة من أنّني فهمتُ ما أرادت قوله إلاّ أنّها بقيت تظنّ أنّني لم أفهم.

«إنْتَ فاهم... أبو عبد الله جِيْبُهْ إنْتَ زِجْ زِجْ... إنْتَ كِذَهْ زُوج... إنْتَ فاهم؟»

وجدتها فرصة لأستكشف ما حصل بينهما ليلة الدُخلة «كيف إنْتِ... جِيْبُهْ أبو عبد الله إنْتِ زِجْ زِجْ؟»

«لا أنا... أبو عبد الله ما جِيْبُهْ... أبو عبد الله ما جِيْبُهْ زِجْ زِجْ».

اطمأن قلبي وقد صرت أعرف أن لا زِجْ زِجْ يجمعها بأبي عبد الله كما لم يجمعني به زِيطْ مِيطْ.

«كيف هذا... كيف أبو عبد الله ما جِيْبُهْ زِجْ زِجْ؟... هذا مُشْ ممام» قلتُ.

«لِيشْ... جِيْبُهْ أبو عبد الله إنْتَ زِجْ زِجْ؟» تساءلتْ مندهشة، مع أنَّ إحساسي قال لي إنَّها تدرك مستوى العلاقة بيني وأبو عبد الله، كما تدرك علاقتها بي، رغم مرور ليلة واحدة، فقط، على زواجهما.

أنحت رأسها إلى الخلف، وكأنَّها تتذكّر شيئاً: «شُوف إنْتَ... مُشْ كثير مهم زِجْ زِجْ... إنْتَ إرْتاحْ كِذَه».

«كيف كِذا إرتاح أنا... كيف إنتِ إرتاح... ما فيش زِجْ زِجْ؟»

«إنتَ أنا فاهم كثير... إنتَ تَعَبْ... أنا لا... أنا نوم... زوج أنا جِيْبُه زِجْ زِجْ».

«مُشْ فاهم أنا... كيف إنتِ نوم... أبو عبد الله جِيْبُه زِجْ زِجْ؟».

«لا لا. إنتَ فاهم مُشْ... أنا نوم... زوج ثاني جِيْبُه زِجْ زِجْ».

«إيشْ... زوجك الثاني... متزوِّجة اثنين؟».

«زوج ثاني أنا إنديا... ثاني حُب أنا... أنا حُبُّه زوج... أنا الرياض في... إنديا زوج أنا في الصين... أنا نوم... زوج أنا نوم سوا سوا».

«فهمت تلتقي مع زوجك الهندي في الأحلام...»

«أحلام... إنتَ فاهم... نُصْ نُصْ أحلام... نُصْ نُصْ نوم... نُصْ نُصْ لا نوم».

«ما بين النوم والصحو... أحلام يقظة يعني... بس هذا كلام كبير... كيف إنتِ زوج اثنين أبو عبد الله وهندي؟».

«أنا مسلم... أنا زوج أربع».

ارتفع صوتي بضحكة مجلجلة، شعرتُ أنَّ كُلّ من في الطائرة سمعها. ظننتُ أنَّ أنديرا لم تكن تعرف قوانين الزواج في الشريعة الإسلامية إلاّ أنَّني سرعان ما عرفت أنَّها تضحك. مع هذا أثارتني بقولها إنَّها، على الرغم من اعتناقها الإسلام، وزواجها من أبي عبد الله ما زالت على صلة مع زوجها السابق.

«أنا زوج إنديا... تعال شيخ أمس... هو كلام... ما تمام زوج إنديا... زوج إنديا كافر... إنتَ مسلم... إنتَ زوج واحد مسلم... إنت أبو عبد الله زوج سوا سوا».

لا أعرف، هل يجوز تزويجها برجل مسلم إذا كان زوجها غير مسلم، أو كافراً، كما قال لها الشيخ الذي جاء إليها. ما فهمته من حديث أنديرا أنَّ زوجها يتبع أحد المذاهب الفكرية المتعلّقة بيوغا

التأمل في الهند، وأنَّ المهراجا أرسله إلى الصين لينشر الفكر هناك. أخرجتْ دفتراً صغيراً، قالت إنَّه يحوي حِكم الهند المُقدّسة. لم أفهم ترجمتها لبعض عباراته. لكن يمكن القول إنَّها تدعو إلى السيطرة على الأحاسيس، وعدم الانقياد وراء الشهوات لأنّ الرغبة المتأججة عدوّة للحكمة، كما تدعو إلى التحرّر من المتعارضات كاللذة والألم والحب والكراهية والنجاح والفشل، فكلّها سواء ومصدرها الأحاسيس؛ وأنّه يجب تجاوز الأنانية وأن نعمل دون السعي نحو الجزاء والفائدة، أو الخوف من العقاب.

لم تكن الجُمل، وحدها، التي تقولها أنديرا جالبة للارتياح، بل كان صوتها، أو طريقة نطقها وصفاء نبراتها، هو ما يجلب الاطمئنان أكثر. ما شدّني أكثر، هو منظر أنديرا، بعد أن بقينا فترة صامتتين، حيث لفتني تهدّج صوتها إليها، فرأيتها ترتعش متهجدة، ملوّعة بأشواق غير مرئية، حتى إنّني حسبتها، وهي تبكي بلذّة وفرح، تشهد معجزة كبرى، كأن ظهر لها الله، أو كأنَّها صارت قريبة منه، بين يديه.

...

...

كانت الفيلاّ التي نزلنا فيها بالقاهرة مجاورة لفيلاّ العائلة المصرية التي استضافتنا. وبدا أنّه يمكن التنقل بينهما عبر باب في الجدار الفاصل بين حوشي الفيلّتين. يغطّي الممر الممتد من باب الجدار إلى باب الفيلاّ عريش من أخشاب وعيدان تتدلى منها غصون خضراء لنبات الزينة، بحيث لا يستطيع أحد أن يستكشف العابرين تحته من بعيد. بعد ساعة

من مجيئنا ذهب أبو عبد الله مع مضيفنا الذي جاء بنا من المطار، فيما دخلت أنديرا إحدى الغرف لتستريح. جلستُ مسترخية في الصالة، وإذْ مضيت في إغفاءة فزعت فجأة من حركة مفتاح في باب الصالة. كنتُ قد أغلقته مع الباب الخارجي بالمزلاج إضافة إلى المفاتيح. هدأ خوفي بعد لحظات من توقف حركة المفتاح وظننتُ أنني سأغفو. لكنَّ باباً في الجهة الأخرى فتح فجأة لأشعر بأكبر فجيعة قبل أن تدخل امرأة ترتدي جلباباً مصريّاً وتحيّيني وتسلّم عليّ. عرفتُ أنّها زوجة مضيفنا وأنّهم يدخلون بهذه الطريقة خشية من أن تكون الفيلاّ مراقبة من بعد، فيكتشفون الذين فيها. قالت إنَّ للفيلاّ ثلاثة أبواب، لا تعرف منها سوى اثنين، أمّا الثالث فسرّي.

حامت آثار الفجيعة على أيّام الأسبوع ولم أستشعر وجودي بالقاهرة. حتى إنني لم أنتبه إلى أحاديث امرأة المضيف، بل ونسيت اسمها. ربّما كنت ما زلت مفزوعة حين ذكرَته فلم أنتبه، كما لم أنتبه لنكاتها الطريفة التي لم أكن أكتشف أنّها كذلك إلاّ بعد أن تعلو ضحكات منها ومن أنديرا، فأبتسم مجاملة لها، مع هزة من رأسي تشعرها باهتمامي.

أدركت أن ذهابنا إلى الرياض كان بهدف أخذ تعليمات من قيادات جهادية أو من داعمين للجهاد، وتوصيل بعض الرسائل الشفهية للمجاهدين في أفغانستان، والأهم، كما أدركت بعدها، هو حمل بعض الأموال والحاجيات لهم التي لا تثير الشبهة إذا ما نقلناها معنا.

خلال الأسبوع الذي أمضيناه في القاهرة، ظلّ أبو عبد الله يفتح الحقائب، التي يحتفظ بمفاتيحها بعناية، ويأخذ بعض علب الماكياج

وزجاجات العطر. لم أكن أدري سر اهتمامه بالعطر والماكياج، ولمن يأخذهما؟

...

...

فَلَم أَرَ غَيرَ حُكمِ اللهِ حُكماً
ولَم أَرَ دونَ بابِ اللهِ بابا

في السودان كان الهدف من مجيئنا واضحاً، بالنسبة لي. كنت أشعر بأهداف مرورنا على الرياض والقاهرة أمّا في الخرطوم فقد كنت متحققة من هذا الهدف، بل شعرتُ أنّني أحد أعضاء فريق تحقيقه. أخبرني أبو عبد الله أنّه سيظل في حال تدريب مستمر طوال الأيّام العشرة التي سنجلس فيها، وأنَّ حريم سودانيات سيأخذنني، بدون أنديرا، كل يوم معهن ليدرِّبنني، أيضاً.

لم يفتح الحقائب سوى مرّة واحدة، لأخذ علبة ماكياج وزجاجتي عطر. «هل معك حُرمة ثالثة، متزوّج بها في السر، تحبّها وتأخذ لها العطر والماكياج؟» قلت ممازحة. «نعم، لي حبيبة ثالثة، بل هي الأولى والأخيرة، أحبّها وأعشقها، هي الشهادة في سبيل الله». «ونِعم بالله» أجبته. كلامه حفَّزني أكثر على الجهاد. تعلّمتُ من النسوة كيفية تكوين المواد الغذائية من الأشجار والأعشاب في حال وجود حصار حربي، وكيفية القيام بالإسعافات الأوّلية وتضميد الجراح والكسور بعلاجات إسلامية من النباتات والبهارات والأخشاب، وحتى من بول الحمير والبقر. تذكّرت أنديرا التي أصرّ أبو عبد الله على بقائها في البيت الذي

نزلنا فيه بدون أن أعرف السبب، حين سمعت عن فوائد بول البقر وروثه. إحداهن أرشدتني إلى كيفية المعاشرة الجنسية في زمن الجهاد «يجب أن تقتصر على مرّة في الأسبوع إذا لم توجد حرب، وبدون إنهاك، وأثناء الحرب يُمنع تماماً، إذْ عليه أن يشحذ فحولته تجاه العدو، يبقى قويّاً غاضباً، لأنَّ النكاح يرخيه ويتركه مسالماً سمحاً». معظمهن كنّا راغبات في أن يذهبن للجهاد، واعتبرنني محظوظة. سمعت منهن أنَّ عدد المجاهدات من العربيات قليل جداً.

ما أثارني في هذه التدريبات والتعاليم هو الأناشيد الدينية التي حفظتها منهن، وبدت محرِّضة للجهاد بشكل لافت. قلن إنَّ المجاهدات يمكنهن أن يدخلن إلى المعركة خلف المجاهدين، ويضربن على الدفوف منشدات:

«المتطوعات زي الزهور متنوعات
العابدات نحو الجهاد متوجّهات»

ومن الأناشيد المشجِّعة للجنود في المعركة تلك التي تدعوهم ليستشهدوا فيدخلوا الجنّة، ويلاقوا هناك الحور العين اللواتي وعدهم الله بهن، فتتمثل المنشدات أصوات حور العين:

«يا جنود الله... يا جنود الله
نحن حور العين في جِنان الله»

أعجبتني بشكل خاص أنشودة خفيفة وراقصة:

«فاز مَنْ صَمَدْ
للجهادْ نَهَضْ»

أو:

«أنا إسلاميْ أنا... أنا إسلاميْ أنا»

أردت أن أخبر أبا عبد الله بهذه الأناشيد التي جذبتني كثيراً، لكنّه سرعان ما أسكتني بقوله: إنّها بدعة مُحرَّمة، ولا يجوز للمرأة أن تؤدِّيها، أو تختلط بالرجال في المعركة. و لم ينسَ أن يذكّرني بالحديث النبوي أن جهاد المرأة حسن التبعّل لزوجها.

الوجه الثاني من الأغنية (إعادة)

. . .

جَنَيتُ بِرَوضِها وَرداً وَشَوكاً
وَذُقتُ بِكَأسِها شَهداً وَصابا

حين وصلنا إلى أفغانستان، مروراً من باكستان، كنت قد بدأت أنسى أتعاب السفر ومحطّاته. شعرت أنّني، لأوّل مرّة في حياتي، سأعمل شيئاً ملموساً، شيئاً عمليّاً يحسّسني بوجودي.

أعطاني أبو عبد الله جوازي اليمني، كما أعطى أنديرا جوازها الهندي. قال إنَّ مهمّة الجوازات السعودية التي سافرنا بها قد انتهت. ما لفت أنديرا أنَّ جوازينا تمّ تأشيرهما على اعتبار أنّنا دخلنا من السعودية إلى باكستان مباشرة، و لم ندر كيف كان ذلك.

في باكستان استقبلتنا، أنا وأنديرا، امرأتان أفغانيتان وألبستانا زيّاً أفغانياً. رافقتنا إحداهما إلى أفغانستان، إلى جانب أربع نساء لم نتعرّف عليهن. كنّا مثلنا محمّلات بالكثير من الذهب.

أخذنا زاوية في حافلة، معظم ركّابها من الرجال، وتكوّمنا تحت ملابسنا الأفغانية، خلف حقائب وأشياء كثيرة كانت تفصلنا عن سبعة رجال بدا لي أنّهم متشابهون بملابسهم الأفغانية، بمن فيهم أبو عبد الله.

لا أعرف المدن التي مررنا بها، أو مكثنا فيها، لكنّني لا يمكن أن أنسى أسماء مثل: بيشاور، كابول، قندهار وتورا بورا. لقد كنّا نسمعها

تُردَّد في ألسنة الرجال، ولا ندري هل وصلنا إليها بالفعل أم بالكلام.

أخذونا إلى كهف حلزوني في أحد الجبال، لننام هناك على أفرشة بالية ميّزناها بصعوبة عبر ضوء خافت من فانوس صغير «لم يجد المجاهدون الوقت ولو لحظة لتصفية زجاجه المسودّ» قلت لنفسي، وأنا أتصوَّر الدور الذي يمكن أن أبدأ به من الغد. لم يغلبني النوم رغم إرهاق السفر. تخيّلت أنّني: وسط وابل من القذائف والنيران، أحمل مجاهداً جُرح في الحرب، مع إحدى الأخوات، نضعه في خيمة، ترجع هي لتسعف آخرين فيما أبقى أنا بجواره، أشطّ سرواله من على فخذه وساقه، وهو يصيح: آح... آح... آي... آي. ثُمّ أنفّذ ما تعلّمته في السودان من الإسعافات الأوّلية. حولي نساء يدعونني مجاهدة في سبيل الله، ولستُ مُجرَّد حُرمة، حُرمة أبي عبد الله، فقط. لم يعد هناك من يناديني يا حُرمة. نقوم بالإسعافات، ونتنادى: يا خولة تعالي... هاتي يا عائشة... إيّاكِ يا زينب... خُذي يا خديجة... ناولي سُميَّة... تفقّدي المُصاب يا حفصة... بارك الله فيك يا أختنا في الجهاد... إخواننا المجاهدون في حال صعبة، إنّهم يُستشهدون واحداً واحداً... هيّا يا أمّ... هيّا يا أمّ مصعب... تقدّمن... احملن السلاح... حان وقت الجهاد... قاتلن المشركين الكفّار.

حين انتبهت إلى الأذان: حيّ على الصلاة، حيّ على الصلاة، الصلاة خيرٌ من النوم، شعرتُ بأنني ما زلت أحلم، أو أنّني بقيت مستيقظة مع الحلم، فلم أنقطع عنه بنوم، كما لم ينقطع عنّي بصحو.

. .

. .

فَلَم أَرَ غيرَ حُكمِ اللهِ حُكماً
ولَم أَرَ دونَ بابِ اللهِ بابا

كان نهاراً مهولاً، أكبر من حلم، نهاراً من نار ودم وموت، نهاراً من صواريخ وقذائف طائرات وانفجارات تشل الحركة، الإحساس بأيّ شيء. أيّة قوّة جبّارة يملكها هؤلاء الصليبيون الغربيون؟ أين قوّتك يا إلهي... أين جنودك التي لا تُرى؟ انصر مجاهديك ولا تخذلهم؟

لا أدري ماذا أعمل؟ شعرتُ بالعجز، عجز كلّ الأحلام أمام هذه القوّة المُرعبة. هل هي قوّة إلهية مُرسلة من الله ليبلي بها المجاهدين؟ حاشا لله أن يعمل بعباده هكذا.

حاولت أنديرا تهدئتي، كما بدا لي، لكنّني لم أكن أسمع وقتها سوى أصوات انفجارات قويّة ليست بعيدة، قيل لي في ما بعد إنّها ناتجة عن القصف الصاروخي، ومعها انفجر رأسي وكلّ جسدي بأسئلة لا نهاية لها. كانت هواجسي تعذّبني: لماذا توجد كلّ هذه القوّة وهذا السلاح المتطوّر الفتّاك عند الكفّار، ويوجد كلّ هذا الضعف عند المسلمين؟ هل هي هزيمة للمسلمين بسبب خطئهم في الحسبان لحياتهم، خطئهم في كلّ شيء، أم هي محنة من الله؟

«الحريم يتجمّعن في الخيمة الأولى الجنوبية» ظلّ صوت ينادي عدّة مرّات، وكأنّ هناك شيئاً خاصاً بالنساء، يُنتظر وقوعه مع غروب الشمس، إذْ بدت المؤشّرات الأولى تنبئ بحلول الظلام.

. .

. .

وأَنَّ البِرَّ خَيرٌ في حَياة
وأبقى بَعدَ صاحِبِه ثَوابا

عرفنا أنّنا سنغادر أرض المعركة، و لم ندر إلى أين. أخذنا حقيبتينا من الكوخ، كما أخذتُ حقيبة يد صغيرة وضعها عندي أبو عبد الله. كان حريصاً على أن ينبهني بأن أحافظ عليها باهتمام؛ و لم أعرف أين أضعها حين قرَّروا ترحيلنا و لم يكن هو بالقرب منّي.

تركنا الرجال إلى مصائرهم، في حرب بدت فيها الهزيمة، أو ما يظنّها البعض هزيمة، مرادفة للانتصار عند المجاهدين، بل إنَّ الهزيمة، بما فيها من قتلى، كانت هي الانتصار بعينه لذيهم، فهي تعني الشهادة، الاستشهاد في سبيل الله.

كنّا مجموعة من النسوة فوق سيّارة صالون، يمضي بنا سائقها إلى هدف مجهول، بسرعة فائقة.

لم أتمكّن من إكمال حلمي في النَّوم اليقظ، أو في الواقع، فلم أمكث أكثر من ليلة ونهار. لم تكن هناك نساء في المكان الذي كُنّا فيه سوانا. قيل لي إنَّهن في مكان بعيد عن الجبهة، يذهب إليهن أزواجهن حسب ما يقرّر القادة ويعودون، ولا تأتي سوى قلّة، فقط، منهن بين وقت وآخر لينمن مع أزواجهن، أولئك الذين لا يستطيعون أن يغادروا أماكنهم لأسباب أمنيَّة. معظم المجاهدين لم يأتوا بزوجاتهم، وتزوّج القليل منهم أفغانيات أو باكستانيات، أو من بنات مجاهدين عرب أتوا بعائلاتهم منذ فترة طويلة إلى باكستان وأفغانستان. عرفت من المصاحبات لنا أنَّه كان علينا، أنا وأنديرا، أن نمكث ليلة واحدة، فقط، ثم نمضي معهن، إلى بلدة قريبة يتجمّع فيها الحريم، بعد أن يؤخذ

الذهب منّا ويسلّم مع حقائب الماكياجات والعطور إلى أمير الموقع.

تأكّدت شكوكي بأنّ الذهب الذي حملته كزينة كان عبارة عن دعم مادّي للمجاهدين أرسل به داعمو الجهاد، وأنّ علب الماكياج وقوارير العطر حملت أشياء يستخدمها المجاهدون في صناعة أسلحتهم التي يواجهون بها الكفّار.

القصف الجوي لم يتح لنا أن نمضي من تلك الطريق التي تؤدّي إلى تجمع الحريم.

بعد ساعتين، تقريباً، من الرحلة الليلية، توقّفت بنا السيّارة فجأة أمام أضواء كثيفة سلّطها علينا ستة مسلّحين، في ملابس عسكرية تحمل إشارات لهويّة بلد غير معروف بالنسبة إليّ. أوقفونا. راحوا يتفحّصوننا بأضواء مصابيحهم اليدوية ويتبادلون في ما بينهم كلمات بلغة غير مفهومة. بسرعة فتح ثلاثة منهم بابي السيّارة الوسطيين وبابها الخلفي. أخذ كلّ واحد منهم امرأة واقتادها إلى منحنى، على جانب الطريق، ممتلئ بصخور كبيرة. كان كلّ واحد منهم يتوجّه صارخاً إلى سائق السيّارة ليقول له عبارات فهمت من نبراتها أنّها آمرة، قبل أن يختفي مع من أخذها. الثلاثة الآخرون بقوا على حالهم صامتين، قابضين على رشّاشاتهم بأيديهم في حال استعداد. بدا لنا أنّ السائق أفغاني، أمّا أولئك الجند فلا ندري أكانوا من الأفغان أم من الإيرانيين، أم من الباكستانيين، أم من بلد آخر.

أعاد الجنود النسوة الثلاث إلى السيّارة، ثمّ فحصوا أشياءنا وفتّشونا، حتى إنّهم انتزعوا منّا الذهب الذي كان على رقابنا وأيدينا وآذاننا. و لم تسلم الأموال وبعض الحاجيات من النهب سوى حقيبة

أبي عبد الله التي وضعتها بين قدميّ فلم ينتبهوا لوجودها لصغرها.

في الطريق، وبعد أن أمروا السائق بمواصلة السير فهمنا من بكاء وانفعالات النسوة اللواتي أخذوهن أنّهن قد تعرّضن للاغتصاب.

الطفل الجالس في المقدّمة بدا، وهو يتحدّث مع السائق، أنّه يجيد الأفغانية. التفت إلينا: «يقول إنّه سيأخذنا عبر الحدود إلى إيران».

ما حدث كان دافعاً لتبادل الحديث بيننا، ومن خلاله تعارفنا.

في خانة السيّارة الوسطى جلست إلى جواري امرأتان، مصريّة ومغربية، الأولى زوجة مجاهد أميركي من أصل أفريقي والثانية زوجة مجاهد فرنسي. أمّا الخانة الخلفية ففيها، إلى جانب أنديرا، عائلتان، الأولى لمجاهد سعودي والثانية لمجاهد جزائري، إلى جانب امرأة كردية. أكبرهن كانت سورية، وهي أمّ لطفلين، الأولى بنت تتنقّل ما بين الجلوس بجوار أمّها والجلوس إلى جوارنا في الوسط. بدت في السابعة أو الثامنة من عمرها. العباءة، مع الخِمار واللثمة، لا تكشف عن عمرها التقريبي، أمّا طفلها الثاني، الذي اختار الجلوس في المقعد الأمامي المجاور للسائق، فبدا أنّه في العاشرة من عمره. حين رغب أبو صدِّيق في الزواج بإحدى بنات المجاهدين السعوديين في أفغانستان، لم يكن أمامه من خيار، كما قالت، سوى أن يطلّقها، هي زوجته الأولى أم الطفلين، لأنَّ الشريعة الإسلامية لا تبيح له الزواج بأكثر من أربع نساء. حيث كان لديه ثلاث زوجات أخريات، واحدة تسكن معها في بيت واحد بأفغانستان، والثالثة في بيت آخر مع والدتها، فيما الرابعة في السعودية.

أراد الله لها، أضافت، أن تتزوّج بمجاهد جزائري، هو أحد أصدقاء

زوجها السابق. اعتبرت ذلك ضماناً، لأن تبقى في القرب من طفليها اللذين لم يشأ أبوهما أن يتخلّى عنهما، كما لم يستطيعا هما أن يفارقا أمّهما.

بجوارها في محاذاة الباب تجلس الزوجة السعودية الأخيرة لأبي صدِّيق، التي حلت بدلاً منها، وتبدو في السابعة عشرة من عمرها.

في مقابلهما تجلس أنديرا، وبجوارها امرأة كردية بدت متذمّرة ومنزعجة؛ حين سألتها هل هي من أكراد العراق أم أكراد سورية أم أكراد تركيا أم أكراد إيران، أجابت غاضبة: من أكراد الجِن.

لم ينتق الجنود الحريم الثلاث من بيننا عنوة، لكنّها المصادفة، كما هو واضح، كانت وراء ذلك. بالتحديد، لأنّهن كُنَّ يجلسن بجوار الأبواب الثلاثة التي فتحها الجنود. كانت المصرية، التي لا يبدو أنّها تجاوزت الثلاثين من عُمرها، لافتة من بينهن، خصوصاً في طريقة بكائها الذي لا يمكن أن يكون بسبب ما جرى لها من اغتصاب، فقط، وإنّما، كما أراه الآن وأنا أستعيد اللحظة، جاء من تراكم اغتصابات أخرى كثيرة ظلّت تكبتها، حتى جاء الاغتصاب الأخير وفجَّر مكنوناتها، وكأنّه جاء ليثوِّر الألم الصامت أكثر من مضاعفته له.

المغربية، التي أُخذت من جواري، أيضاً، بقيت صامتة، لا تخرج منها سوى تنهدات مؤلمة اختفت معها الأدعية والتسابيح الدينية التي كانت تتمتم بها من قبل بصوت رخيم. زوجة أبي صدِّيق السعودية التي أخذوها من الخانة الخلفية، ظلّت تردّد منذ أن رجعت بصوت غاضب «كُفّار... كفرة... أعداء الله». التفتُّ، بعد وقت، لأرى لماذا صمتت، فلمحت اطمئناناً عميقاً على وجهها، مدموجاً بابتسامة

يقظة، لم تكن قد مضت في نوم عميق، كأعضاء جسدها.

بعد أن توقفت السيارة للاستراحة بطلب من الولد الجالس بجوار السوّاق، والذي عاجله البول، كما بدا، حاولتُ أن أجلس بجوار الباب. أشرتُ لزميلتي الرحلة أن تسبقاني في الدخول إلى السيارة. «إيه يا بنت إنتِ حسدتينا وإلاّ إيه؟» قالت أم العز المصريّة، وهي تضحك. أجبتها بضحكة مماثلة، و لم أعرف ما أضيف إليها.

حين تحقق لي ما أردت، وبقيت بجوار الباب، قلت لها: «أستطيع هنا أن أنحي رأسي على الباب وأنام، أنتِ ما شاء الله، دائماً صاحية».

«كِدَه وإلاّ كِده ما فيش مشكلة» وعادت للضحك، قبل أن تهمس: «هُم الجنود دول أقوياء كِده ليه... هُم بيأكلوا عسل حضرمي وإلاّ إيه؟».

بدت تعرف أثر العسل الحضرمي على تقوية الجنس، مع أنّه لم يؤثّر، أبداً، على أبي عبد الله. أشعرني كلامها بالحسرة. يا لتعاستي، حتى الاغتصاب لم ينلني منه نصيب. استغفرتُ الله على هذه الأفكار، لكنَّ بالي لم يهدأ، وبقيت أنتظر اللحظة التي تفتح فيها يد جندي الباب عليّ وتسحبني إلى مكان مخفي عن أعين الآخرين. ماذا لو قام بذلك أمام أنظار الجميع؟ ستكون فضيحة. لا، لن تكون فضيحة. لتكن كذلك. ليغتصبني أمام الكلّ، لا يهم، فهو اغتصاب بدون إرادتي، ولا ذنب لي فيه.

كنتُ قد نمت مع خواطري. حين امتدَّت يد جندي وفتحت باب السيّارة شعرتُ بأنَّني في حلم. أمّا حين طلب منّي أن أنزل مع الأخريات فظننت أنّني أمضي في حلم مختلف، حلم حقيقي. كنتُ مدركة لحظتها الفرق بين الحلمين، وهو ما لا أستطيع الآن استذكاره

أو فهمه، على الأقل. ظلّ الجندي ومعه ثلاثة آخرون يفتّشون السيارة من كلّ جوانبها، وبقيت أنتظره أن يأخذني إلى المكان الخفي؛ لكنّه إذْ أشار إلينا أن نعود إلى داخل السيَّارة، فقد تأكّدت أنَّ الحلم انتهى.

أعادتنا عملية التفتيش من الجنود إلى ما قام به أشباههم من اغتصاب. اقتنعت وأنا أستمع إليهن، يتحدثن عن تجاربهن وتجارب أخريات، أنَّ الاغتصاب شيء مقيت لأنّه انتهاك واعتداء، ممارسة للذة من قبل طرف واحد، بواسطة العنف، ضد الطرف الثاني. أنديرا أخرجتنا من الثرثرة المعتادة إلى أجواء أخرى واسعة للتفكير، فرغم تنوّع ألفاظها وشروحها ما بين اللهجات العربية والإنجليزية، أستطيع أن أفهم ما قالته على هذا النحو: الجسد عبارة عن ثرثرة لغوية يتناوب فيها الله والشيطان، وأحياناً، يثرثران معاً، فالله يزن الكلام بالعقل الواعي وتكون لغته مُحكمة في صون الجسد، في شكل الملابس ونطق الفم وحركات العين واليد؛ لكنَّ الشيطان يدخل الجسد، أيضاً، ويثرثر فيه، فيبدو ذلك في العين حين لا تغضّ أو اليد وهي تمتدّ إلى مكامن الشهوة، أو حتى في اندفاعات أعضاء ما بين الفخذين. ثرثاران في جسد واحد. قد يُشبع الاغتصاب ثرثرة الشيطان في الجسد، لكنه يُقْهِر من تسيِّر جسدها في طريق الله، ويربك وعيها، أو يثير جوعها للأسئلة. الذين يتحدثون عن الحريّة يكونون بذلك قد مكّنوا الشيطان من الثرثرة في جسدهم. وعلينا أن نقوّي الله ضدّ الشيطان.

بدا حديثها مشبعاً ومكمّلاً للتساؤلات والآراء، إذْ ساد الصمت. استعدتُ، في بالي، صورة المرأة القانتة العابدة الطاهرة التي تموت عذراء، وتلك الحافظة لفرجها العفيفة المخلصة لزوجها، لكنَّ الأسئلة

الصامتة سرعان ما حاصرتني: هل سأكون في الآخرة، وأنا على هذي الحال عذراء، من بنات الحور العين في الجنّة، اللواتي سيقدّمهن الله مكافأة لعباد الله المتّقين ليستمتعوا بهن؟ أم أنَّ الله سيخلق حوراً عيناً مختلفات؟ أليس لنا، نحن النساء العابدات القانتات الحافظات لفروجنا، متعة كالرجال في الجنّة؟

...

...

نَبِيُّ البرّ بَيَّنَهُ سَبيلاً
وسَنَّ خِلالَهُ وهَدى الشعابا

تحدّث السائق إلى الطفل الجالس بجواره، الذي بدا أنّه قد اكتسب فهماً للغة الأفغانية أثناء مكوثه هناك مع أبيه وأمّه. التفت الطفل إلينا: «يقول إنّنا صرنا في الأراضي الإيرانية».

الطفل والسائق بذلا جهداً كبيراً أثناء توقيفنا في نقطة حدود عسكرية، حيث طُلب منّا الإجابة عن الكثير من الأسئلة، وملأ العديد من الأوراق، وأن ننتظر أربع ساعات تقريباً، قبل أن يُسمح لنا بالمرور.

بين صحو ونوم، وتوقّف وعبور، وبعد أن افترقنا، و لم أعد أعرف أين ذهبت أنديرا، وجدتني داخل سجن نسائي إيراني، وحيدة بين جدران غرفة ضيّقة. هناك لم تمر ليلة بدون استدعائي للتحقيق معي، عبر أسئلة من أناس لا عدّ لهم.

جلستُ سبعة وعشرين يوماً، بقيت منها تسعة أيّام في زنزانة منفردة. بعد أن خالطت السجينات صرت أقل قلقاً إذْ تعرّفت إلى الكثيرات

منهن وأبرزهن وسيطة المُتعة، كما وصفت نفسها. فرحت حين ذكرت لها اسم بلدي، ربّما لتستذكر كلماتها العربية التي اكتسبتها أثناء عملها. قالت إنّها كانت تقوم بتنظيم زواج المتعة، بين الرجال والنساء، حسب شروط المذهب الشيعي، مع «بعض الاجتهادات» كما أوضحت. «أنا أصلاً بلغت درجة الاجتهاد في الفقه الإسلامي» أضافت ضاحكة. وهذا الاجتهاد لم يرق السلطات الإيرانية فاعتبرتها راعية للزنا.

هناك نساء أخرى لا يمكن نسيانهن: جيهان مدمنة المخدرات، كاترين الصحافية الأميركية التي اتّهمت بالتجسس لحساب المخابرات الأميركية والإسرائيلية، وشيرين التي تتهمها السلطات بالتحريض ضد النظام الإسلامي الإيراني بسبب خلعها الحجاب في تظاهرة للمعارضة، وتصريحها لصحيفة بريطانية بأنّها تحب شاباً ينتمي للطائفة اليهودية في إيران وليس لديها أيّ مانع من الزواج به. قالت لي بكلّ ثقة: «المشكلة، بالنسبة لي، ليست مع السلطة الإيرانية، فأقصى ما ستقوم به هو قتلنا، ونحن كما ترين مقتولون في الحياة، لا نعيش، بل المشكلة لدى الشاب اليهودي الذي لم يتجرّأ مثلي ويعلن رغبته في الزواج بي». أوضحت: «لم يستطع، ولو مجرّد التصريح بالرغبة. في البداية كتب لي رسالة عبّر لي فيها عن حُبّه، ثُمّ عاد ورجاني أن أعيدها إليه خوفاً من أن تقع بيد أحد، مع تأكيده لي أنّه ما زال يحبّني، ومع الأيّام لم يعد يقول لي كلمات الحب بصوت مسموع، حين نلتقي؛ بدا أنّه صار يخاف حتى من الجدران، وكأنّ بها، أو من ورائها، آذاناً. ثُمّ اتّخذ من تحريك عينيه طريقة للتعبير عن حبّه لي، لكنّ عينيه في الوقت نفسه ظلّتا تتحرّكان في

اتّجاه آخرين كانوا يعبرون في الشارع أو يجلسون خلف النوافذ وعلى السطوح وفي المقاهي، خشية من أن يكون أحدهم يراقبنا، أو حتى يرانا». بقيت شيرين تعيد إلى مسمعي قصّتها كلّما قابلتني، وكأنّها تريد أن تحفّظني إيّاها. بدت واثقة من أنّني سأخرج من السجن، ومعي ستخرج قصّتها، أكثر من وثوقها بخروجها: «لقد كنتُ أحسّ بأنّه صادق في حبّه لي، رغم كلّ العوائق والكتمان، فبادلته الحب. لهذا، حين أخرج من هذا السجن، إذا خرجت حيّة، فسأذهب، أوّلاً، لزيارة قبره، فقد انتحر حين سمع باعتقالي. ربّما، خاف أن يأتوا إليه، إذا بحث باسمه، ويعتقلوه مثلي، مع أنّه بقي معتقلاً طوال حياته، لقد ظلّ الخوف يعتقل سنوات عمره، و لم يستطع أن يتحرّر منه حتى في موته، إذْ لم يعلن لماذا انتحر».

في الليالي الأولى تركّزت أسئلة المحقّقين على سبب مجيئي إلى أفغانستان وأسماء من أعرف.

صرتُ آلف التحقيقات، وبرمجت أفكاري للإجابة عن معظم الأسئلة المتوقعة سوى تلك التي تنوّعت أساليبها من قبل المحققين، وجميعها تصدر من اعتقاد بأنّني زوجة الشيخ أسامة بن لادن. بقيت أنكر علاقتي به بكل العبارات، إلاّ أنهم لم يقتنعوا. في الأخير، جاء شخص وقال إنّه مكلّف من السفارة اليمنية بترحيلي إلى صنعاء، بعد أن سمحت له السلطات الإيرانية بذلك.

...

...

أحاول أن أتوقف هنا. بي رغبة في أن أمضي مع الأغنية

وكانَ بَيانُهُ للهَدي سُبلاً
وَكانَت خَيلُهُ لِلحَقِّ غابا

في حقيبة اليد التي وضعها عندي أبو عبد الله وجدت، بالضبط، أربعة وثلاثين ألفاً وستمئة وعشرين دولاراً. كان هذا المبلغ كفيلاً بأن يبقيني أعيش وحدي أكثر من خمسة أعوام في البيت الذي كان أبو عبد الله قد دفع إيجاره لمدّة سنة؛ إلاّ أنّني فضّلت أن أعود للعيش بين أهلي، عند أبي وأمّي وأختي.

كانت قد مضت أكثر من سنة منذ أن انقطعت أخبار أبي عبد الله، حين عاد أخي عبد الرقيب من الشيشان، ومعه زوجة من هناك اسمها فالنتينا.

البيت الذي ألفه عبد الرقيب، حتّى وهو في حال اضطراب، لم يعد كما كان. لقد تغيّر تماماً، وأصبح ممتلئاً بالوحشة، إذا لم يصبح الوحشة نفسها. قبل ستة أشهر، أو أقل، من عودته، راحت أمّي في أحد الصباحات لزيارة زوجة خالي المريضة، فيما ذهب أبي إلى عمله. يومها، قالت لولا إنَّها لن تذهب إلى العمل، وستروح إلى صديقة لها وتعود سريعاً. بقيتُ وحيدة في البيت ورفضتُ أن أذهب مع أمّي لشعوري بالضيق من مقابلة وحديث أيّ أحد. لم تمر سوى ساعة ونصف، حتى عادت لولا. طلبت منّي حين فتحتُ لها الباب أن أرجع وأجلس في غرفة والديّ. «عندي ضيفة، سأجلس معها في غرفتنا»

قالت وهي تشير إليّ أن أسبقها.

ظلّت ضحكات لولا تصلني، من الغرفة المجاورة، بين وقت وآخر، فيما لم أسمع إشارة صوتية تكشف عن وجود ضيفتها.

رحتُ لأفتح الباب، بعد أن سمعت دقّات عليه، أيقظتني من غفوة بدت طويلة. كان أبي قد عاد من العمل قبل الموعد المعتاد. ممدّد على فراشه وهو يشكو من وخز مؤلم في جنبه. «هذي لولا. عادت مبكراً اليوم من عملها» قال حين سمع ضحكاتها المتتالية.

«معها ضيفة. ربّما، زميلتها في العمل».

بقي أبي يتوجّع من جنبه ومن مثانته، ما يعني أنّ آلام الكلى قد عاودته. «خذيني إلى الحمّام... أح... لا أستطيع أن أعمل عملية البروستاتا بسبب مشاكل القلب». وضعتُ يده اليمنى على كتفيّ، ومددت يدي اليسرى حول ظهره لينهض ويتوكأ عليّ وهو يمشي. فجأة، توقّف في الصالة أمام باب غرفتنا: «أسمع صوت رجل عند لولا».

لم أسمع ما سمعه، وقلتُ له ما كنت قد ظننته: «إيش من راجل؟ ما بِشْ حد... هذي لولا مع زميلتها»، لكنّه انتفض مبعداً يدي عنه، ودلق بقوّة غير معتادة منه الباب الذي بدا أنّ إغلاقه المُحكم لم يحد من اندفاع أبي. ويا لهول ما رأى. لقد رأى ما لم تتوقّعه عيناه، أبداً، ولم تتوقّعه عيناي، أيضاً، أو ظنوني، وإلاّ ما كنتُ أجبت دقّات أبي على الباب، قبل أن أنبّه لولا. صحيح أنني لم أكن سأوافقها إذا أخبرتني عن هويّة الضيف، ولكن، كان عليها أن تخبرني، على كلّ حال. لقد ظننت أنّ الضيفة زميلة لها في العمل أو ما شابه.

لقد اصطدم أبي برؤية جسدين عاريين في إحدى غرف منزله،

وهما في حال تهيّج والتذاذ حميم. لم يصدّق للوهلة الأولى أنَّ أحد الجسدين هو جسد لولا إلاّ حين بان وجهها، الذي لم تستطع أن تخفيه، كما لم تستطع أن تغطّي عريها الذي أبقاه ارتباكها، على ما ظهر، إلى حين.

...

...

وعَلَّمَنا بناءَ المَجد حَتّى
أَخَذنا إمرَةَ الأَرضِ اغتصابا

سهّلت الصدمة التي وقع فيها أبي خروج الشاب وهروبه، مع ملابسه التي كوّمها حول وسطه. اندهشت لتأبّطه عباءة نسوية إلى جانب ملابسه، وإذْ تذكّرت أنّني لمحت هيئة امرأة بعباءة سوداء إلى جانب لولا، حين فتحت لها الباب، فقد أدركتُ أنَّ الشاب دخل إلى بيتنا متنكّراً بعباءة امرأة.

بدا أبي منهاراً، وغير قادر على القيام بأيّ عقاب ضد لولا، كالضرب أو غيره. بعد أن ناولتُه ماءً ليشرب، استعاد صوته: «هل يعقل أن يحصل هذا في بيتي، في بيت حصّنته بالدين والقيم والأخلاق طوال عُمري؟ هل يمكن أن تقوم ابنتي، محل ثقتي، بهذا؟ حتى أنت اللي درستِ الدين ورحتِ حتى آخر الأرض تجاهدين في سبيل الله ترضين بذلك؟».

«لا أنا ما رضيت يا أبي... أقسم لك بالله العلي العظيم إنني لم أعرف. قالت لي إنَّ لديها صديقتها، وتركتهما تدخلان وحدهما،

وأنا لا أدري أنَّ اللي معها شاب يلبس عباءة امرأة... وحياتك يا أبي... ومعزّتك عندنا».

«فوق هذا، أدخلته بملابس امرأة. يعني، دائماً كانت تعمل هكذا. وأنت تحلفين بحياتي، بمعزّتي عندكم. إيش مِن حياة وإيش مِن معزّة... ما توقّعت في يوم من الأيّام أنَّ كرامتي صارت هيِّنة هكذا».

كانت لولا قد استعادت ملابسها إذْ اقتربت لتواسي أبي الذي ظلّ مطروحاً في الصالة: «يا أبي أنت لم تتوقّع. عرفتَ معاناة الحياة و لم تعرف كيف تحلّها». غضب لاقترابها منه وسماعه صوتها: «مازال لديك الجرأة لتقولي هذا... إيش مِن معاناة... وإيش من حلّ يا... يا قحبة... أنا بنتي قحبة؟ يا للمصيبة».

«أنا ما عَمَلْتِشْ حاجة إلاَّ مِنْشَانَكُم».

«ما هُوْ... ما هو... ما تقولي؟»، انفعل أبي وبدا أنّه غير قادر على الكلام. واصلت: «هذه الحقيقة يا أبي... لا تزعل منّي... لِلْمَه الآن بَسْ تحاسبني على ما عملت؟ لِلْمَه ما حاسبتنيش وقلت عنّي قحبة لَمّا كنت بمقحابتي أكسب فلوس؟ كنت تعمل نفسك مَنْتَشْ داري لأنّي أصرّف عليكم، أمّا الآن لَمّا ما عد بِشْ فلوس دريت». انفعلت أكثر حين رأتني أشير إليها بالسكوت. «روحي يا هبلا... أنت ما تفهميش.» قالت. مددتُ يدي إلى فمها لأغلقه وأنا أرى أبي يتوعّك بصمت و لم تعد تخرج منه سوى تأوّهات، لكنّني لم أقدر. «اسكتي مالكْ جُننت؟» صرختُ فيها. أبعدت يدي عن فمها بشدّة وبدا أنَّ منظر أبي وهو يتأوّه قد أثّر فيها: « أنا أحبّك يا أبي وما كُنتش أشتي أجرح شعورك، لكن ما أعمل؟ كُنت أشتي أحقّق لنفسي رغبة أخيرة

وأنت اللي رجعت قبل موعدك من العمل».

لم يكن أبي قد نطق بكلمة، أو سُمع منه تأوّه، أثناء حديثها الأخير. أكان متألماً إلى حد لم يعد قادر فيه أن يقول ولو كلمة، أم هو قرّر أن يتجاهلها؟ لولا وحدها أكّدت لي وهي تتفحصه، أنّه لم يكن يسمعها، لأنّه كان قد مات.

...

...

وما نَيلُ المَطالبِ بالتَمَنّي
ولَكِن تُؤخَذُ الدُنيا غِلابا

سأل عبد الرقيب عن سبب وفاة أبي، فأجابته أمّي: «قضاء وقدر، إرادة الله».

لم أكن أنا ولولا قد أخبرنا أمّي بتفاصيل ما جرى، خوفاً من أن تتأثّر مثله.

انقطعت لولا عن العمل، وعن الخروج من البيت إلى أيّ مكان، بدت في أسوأ حالاتها، و لم يعرف أحد، غيري، سبب ذلك. مع هذا، لم أتيقّن، في البداية، من السبب، تماماً، وبقيت متأرجحة بين سؤالين: هل تعيش لولا في حال تأنيب ضمير لما سبّبته في وفاة أبيها؟ أم هي تعيش بغبن وألم لعدم تقديرنا لما فعلت من جهد من أجلنا، بالأصح ما سكبته، كما قالت، من عَرَق كُسّها لكي لا نجوع أو نحتاج لشيء؟

...

...

بعد أن صرت أصغي إلى هذيان لولا كثيراً، تأكّدت أنَّ الندم، أو تأنيب الضمير، لا وجود له. ظلّت صورة أبي لديها، كما بدت يوم وفاته، وكأنَّ ما حدث لم يكن قد حدث، أو أنَّه **حدث في اللاشيء**. بنبرة صوت لا يمكن وصفها بالمتأسّفة أو المريرة، كما لا يمكن اعتبارها ساخرة، أعادت قولها إنَّ أبي عرف معاناة الحياة، لكنّه لم يعرف كيف يحلّها «صحيح أنَّه كان لا يستسلم لهذه المعاناة، ولكنّه بالمقابل لم يكن يعمل على مواجهتها وحلّها؛ انتظاره أن يحلّها آخرون نيابة عنه هو ما كان يقدر عليه. كان الانتظار يعطيه ميزة اللااستسلام، كما أنَّ عدم تكليف نفسه ولو مجرّد السؤال عن كيف تم الحل منحه، أيضاً، صفة اللامقاوم اللامواجه، وفي الحالين كان لا شيء».

...

...

أَبا الزَهراءِ قَد جاوزتُ قَدري
بِمَدحِكَ بَيدَ أَنَّ لِيَ انتِسابا

فالنتينا بدت أكبر عُمراً من عبد الرقيب، وأكثر أنوثة من زوجته السابقة نورا. كلّ ما فيها كان يتدفق بالفتنة. معها، وُلِد عبد الرقيب للمرّة الثالثة. لقد كان متحمّساً لأفكاره الماركسية وآرائه الإلحادية أثناء عزوبته وشبابه إلى حد التطرف، ثمّ، حين استولت عليه أحاسيس الغيرة، بعد زواجه بنورا، وجدناه يتحوّل إلى الطرف الآخر، في تشدّده الإيماني وانتمائه إلى جماعة جهادية تُخطط لقتل كلّ من تعتبرهم كُفّاراً.

«عندي لقاء مهم مع الجماعة اليوم»، نادراً ما كان يبوح لي، أنا

وحدي، بهذا القول؛ لكنّ جماعته السابقة، لم تعد عنده كما كانت. مع مجيء فالنتينا أحرق كلّ ما يتعلّق بالجماعة من كُتب ومنشورات وكاسيتات امتلأت بها غرفته. تماماً، كما فعل من قبل مع الكتب الماركسية وكاسيتات الأغاني الشيوعية الثورية.

صار عبد الرقيب يستعيد قوله القديم إنَّ اللعب في الوقت الضائع هو خارج لعبة الحياة الأساسية، لهذا لم يعد هناك، كما قال، ما يربطه بالجماعة الجهادية: «ربّما لعب بن لادن ورفاقه أدوارهم في الوقت المُخصّص للعبة، حتى وإن خسروها في النهاية، فيكفي أنّهم لعبوا، أما هؤلاء، الذين جاؤوا بعدهم، فيبدو أنّهم يلعبون في الوقت الضائع، في زمن غير زمنهم».

«أين الجماعة؟» استغربتُ حين سمعت منه هذا السؤال، إلاّ أنّني سرعان ما اكتشفت أنّه صار يلقّب فالنتينا بالجماعة. لقد صارت وحدها جماعته، بل ومذهبه. ظلّ يقول إنّه صار من أتباع مذهب الإمام أبي حنيفة الذي تنتمي إليه زوجته الجديدة، وكان عليه، بالأصح، أن يقول إنّه صار من أتباع فالنتينا.

«سمّاني والداي الشيوعيان على اسم فالنتينا رائدة الفضاء الروسية في زمن الاتحاد السوفياتي» أوضحت لنا في اليوم الأوّل لوصولها إلى منزلنا. قالت لها لولا، يومها، وهي تنظر إليها بحسرة: «فالنتينا الروسية استطاعت أن تصعد إلى الفضاء بحرّية، أمّا أنت فلن تستطيعي حتى الصعود إلى سطح المنزل. وإذا حاولتِ القيام بذلك مرّة مثل نورا فستصيبك صواريخ الرقابة ونيران الإشاعة ويهلكك تلصّص الكاميرا».

وصفت فالنتينا نفسها بأنّها مُجاهدة قومية لا دينية، لكنّها ليست

كأسرتها شيوعية. مع هذا بقي عبد الرقيب يصرّ على القول إنّها من أتباع مذهب أبي حنيفة.

بقدر الأنوثة التي كانت تتدفق منها، كان حنانها، أيضاً، يملأ كلّ حياة عبد الرقيب، فيفيض منه إلى أن يصل إلينا. كانت لولا تظنّها متصنّعة، و لم تنسجم معها. بدت مهتمّة بمظهرها بشكل لافت، لكنّها، قبل ذلك اهتمّت بغذاء عبد الرقيب، بملابسه وراحته وهدوئه وعطره [ألم يصبح يستخدم العطر، وهو الذي لم يكن قد عرفه؟]. بالرغم من الهالة الجمالية المصاحبة لجسدها، لم تتراجع عن إظهار طاعتها وتقديرها غير المحدودين له. ربّما، في سلوكها هذا، استطاعت أن توصل عبد الرقيب إلى أن يقول لها: «لا تطلبي، وإنّما اؤمري... كلّ ما تريدينه سيكون بين يديك»؛ لكن سلوكها هذا، كما تراه لولا، له أساس واحد، لاحظته هي وحدها، وهمست إليّ بأنّ فالنتينا اكتشفت سرّ قوّته وما لم تره نورا فيه: «أخوك ما راح يحارب ويغزو الروس مع المجاهدين الشيشان، هو راح يغزو الشيشان نفسه، شَهَرَ سَيْفه وغزا إحدى نسائه، غزوة قويّة ومؤثّرة، وعاد منتصراً ظافراً».

...

...

فَما عَرَفَ البَلاغَةَ ذو بَيان
إذا لَم يَتَّخِذكَ لَهُ كِتابا

مَدَحتُ المالكينَ فَزِدتُ قَدرًا
وحينَ مَدَحتُكَ اقتَدتُ السَحابا

بقيتُ أتتبّع أخبار المجاهدين في أفغانستان وسجن غوانتانامو، لأعرف إذا كان أبو عبد الله بقي حيّاً، وما زال بينهم.

بعد أكثر من سنة ونصف، لم تصلني فيها أيّة إشارة تخبرني بأنّه ما زال حيّاً، قرّرت العودة إلى الدراسة الجامعية.

أصبح لدينا، منذ وفاة أبي، تلفزيون وفيديو، واستخدمنا بدون تخفٍّ تلفوناتنا النقّالة. مع هذا، أحسستُ أنّني أعيش بين ستة جدران، حتى وأنا أمشي في الشوارع، أو أتجوّل في الأسواق. الجامعة، صرتُ أراها، أيضاً، عبارة عن جدران، لكنّها جدران مكثّفة وسميكة، جدران تلخّص كلّ ما يماثلها من جدران؛ ولأنّها كذلك، كنت أحاول أن أستعيدها وأتقرّب منها، كأنّني أستعيد نفسي، أتقرّب منّي، مع أنّني لم أكن أنا التي كُنتها، كما أنّني لم أصبح واحدة أخرى مختلفة.

...

...

...

مَدَحتُ المالكينَ فَزِدتُ قَدرًا
وحينَ مَدَحتُكَ اقتَدتُ السَحابا

فاض اكتئاب لولا كثيراً، و لم نعد نستطيع تحجيمه. عبد الرقيب الذي حصل على فرص تجارية رابحة، عبر إحدى الشركات، ذهب مع زوجته ليسكنا في منزل اشترياه، فنجوَا من لطخات الكآبة المبثوثة في أجواء البيت. حين ماتت أمّي فجأة جاء وزوجته ليجلسا عندنا لمدّة أربعين يوماً، ثمّ عادا إلى منزلهما.

لم يعد في البيت سواي ولولا، وكنت قد أصبحت في السنة الثالثة في الجامعة. ظلّت تكرّر القول إنّها لا تشعر بالندم لما فعلته في حياتها، لأنّها لم تجد طريقاً آخر غير الذي مضت فيه. مع هذا، تحدّثت عن زواج أبي وأمّي على الطريقة القديمة «بعدما تقدّما في السن ظلاّ يعيشان معاً، يستذكران شبابهما وأيّامهما الماضية، أمّا أنا فلا أتذكّر شيئاً، وجوه وممارسات وانفعالات تمر من ذاكرتي كأنّها حلم مفزع أو كابوس، فقاعات لا تُمسك». صمتت يومها لتنظر إليّ.

«أتحسبينني أخطأت حين جئت بالشاب إلى البيت؟ أنا تقدّمت في السن و لم أعد مرغوبة كما كنت. آخر مرّة خيّطت كُسّي، لأبدو عذراء عند من لا يطلب سوى مضاجعة العذارى، لكن مع هذا، لم يرغب فيَّ أحد؛ خفتُ أن ألاقي ربّي يوم القيامة، وأنا عذراء، فيدخلني الجنّة مع العفيفات الطاهرات العذراوات. لم أشأ أن أخدع الله، وبقيت قلقة. وما إن التفت إليّ هذا الشاب في الشارع حتى أجبت التفاتته بالتحيّة، فوجدته مطيعاً كأنّه لم يعرف الجنس من قبل، إذْ واعدته وجاء معي بعد أن لبس عباءة نسائية، حسب طلبي. هكذا حقّقتُ ما أردته لآخر مرّة».

كنت حذرة من ردود انفعالاتها، أبقى مستمعة إليها بدون رد.

لم تعد مدركة تماماً لتصرّفاتها. ظلّت تتنقل بين مشاهدة أفلام السكس أو الثقافية، كما كانت تسمّيها، وسماع أشرطة دينية ودعوية في المُسجِّلة. ولا تنسى أن تقوم بأداء الصلاة بين حين وآخر، حتى وهي بدون وضوء، أو أن العادة الشهرية فوقها.

مع تزايد اضطرابها، صارت لا تأكل، وتصرّ على البقاء صائمة،

رافضة كلّ محاولاتي لإطعامها. لم أستطع النّوم في إحدى الليالي، وقد رأيتها متعبة جدّاً، فاتصلت بعبد الرقيب. لكنّه إذْ جاء مع زوجته متأخراً، فإنّ لولا كانت قد بلغت أوج إصرارها، وحقّقت، ربّما، بذلك، مبتغاها في قتل نفسها جوعاً وهلاكاً.

...

...

سَألتُ اللهَ في أَبناءِ ديني
فإِن تَكُنِ الوَسيلَةَ لي أَجابا

قرّر عبد الرقيب أن يبيع لي نصيبه من الإرث في البيت، لتصبح لي وحدي. كان بيعاً شكلياً و لم يتقاضَ المبلغ المُسجّل في مستند البيع. اعتبر ذلك هبة منه إليّ. بقي وزوجته يلحّان عليّ أن أذهب للعيش معهما، لكنّني أصررت على البقاء مع الذكريات.

في السنة الرابعة من الجامعة، شغل بالي السؤالُ عن مصير أبي عبد الله أكثر ممّا شغلتني المتطلّبات والقراءات الدراسية. أردت أن أضع حدّاً لهذه التساؤلات، لكي أصفّي ذهني من اضطرابه. أثناءها، لمحتُ وأنا أقرأ صحيفة الجامعة اسم أستاذ التربية الإسلامية الذي كان يحاضر لنا في السنة الأولى، قبل أن أتوقّف عن الدراسة. اسمه كان يتصدّر زاوية يجيب فيها عن أسئلة المستفسرين عن بعض جوانب الشريعة، وبجواره عنوان بريده الإلكتروني.

كُنت قد قرأت وسمعت عن الانترنت لكنّني لم أستخدمه. «بسيطة» قالت لي زميلتي حفصة، مبدية استعدادها للقيام

بتعليمي. اخترنا مقهى للانترنت وجلستُ إلى جوارها، أمام أحد الكمبيوترات، أستمع إلى دروسها الخاصّة. لم أنتظر كثيراً. في اليوم نفسه أدخلت خط انترنت إلى البيت واشتريت كمبيوتراً إسلامياً، كما وصفوه، لا تُسمع منه النغمة المعتادة حين يُفتح الكمبيوتر العادي، بل تُسمع البسملة: بسم الله الرحمن الرحيم، وآي من القرآن الكريم: سبحان من سخّر لنا هذا. كما يصدر تنبيهاته الصوتية عبر آي من القرآن.

«أستاذي الشيخ الفاضل أبو السرور...

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته وجزاكم الله خيراً على ما تقدّمونه من فتوى تنير لنا طريق الإسلام.

أتشرّف يا فضيلة الشيخ بأنّني كنت قبل خمس سنوات إحدى طالباتك في السنة الأولى، قبل أن أنقطع عن الدراسة. والآن أطلب منك أن تجيب عن استفساري وتوجّهني إلى ما يرضي الله سبحانه وتعالى. ولأن استفساري يتعلّق بمسألة خاصّة أرجو أن تبعث لي برقم تلفونك لأتّصل بك وأشرحها لك. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته». كان هذا أوّل إيميل أبعثه في حياتي.

جاءني الردّ، واتصلت به: «ما هو رأي الشريعة السمحاء يا شيخنا الفاضل، إذا اختفى الرجل عن زوجته أثناء الحرب و لم تسمع عنه أي خبر لمدة تزيد على أربع سنوات. هل تبقى في ذمّته، زوجة له، وهي لا تعرف، هل هو حيّ أم ميّت؟».

«لا... لا... لا...». لم أعرف ماذا قصد بلاءاته الثلاث. «ما قصدك يا شيخنا؟»

«اسمعي، المسألة بحسب الحالة، تعالي غداً بعد صلاة العصر إلى مركز إرشاد المهتدين لتشرحي لي المشكلة أكثر. سأبلغ السكرتير أن يدخلك أوّل ما تجيئين».

ذهبت إلى المركز الذي بدا أنّه خاص به، وإذْ صرت وحيدة أمامه، أتحاشى نظراته الفاحصة، قال: «لا، لا يجوز أن تبقي في ذمّته، الإسلام يُسر وليس بعسر». لم أكن قد شرحت له المشكلة، قبل أن أسمع فتواه. هل كشفت له عيناه، وهو يحدّق بهما إلى جسدي الملفوف بالعباءة والخمار، تفاصيل المشكلة؟ «الجهاد واجب، ولكن...»، و لم يكمل إلاّ بعد لحظة صمت بدا فيها أنّه يتقصّد إبراز ابتسامته كمقدّمة لما سيقوله.

«كيف يذهبون للجهاد، وأمامهم ما يستحق الجهاد. ألم يقل الشاعر:

يقولون جاهد يا جميل بغزوة

وأيّ جهاد غيرهن أريد

تذكّرت كلام لولا عن الجهاد الذي يشبه البيت الشعري، كما تذكّرت محاضرة الأستاذ نفسه، المفاجئة لنا، في السنة الأولى؛ فبدا قوله أقلّ إدهاشاً من تلك المحاضرة.

ما قدّمه لي من مساعدة لم يقتصر على الفتوى، فقط، بل واعدني للذهاب بعدها إلى محام، ثمّ إلى محكمة الأحوال الشخصية لمدّة أربعة أسابيع، حيث أصدر قاضي المحكمة، بعد جملة من المساءلة والتحقيق، حكمه بتطليقي من زوجي غير المعروف مصيره.

يومها، عدتُ إلى البيت، وكأنّ حملاً أُزيل عنّي، حملاً لم أكن أحسّ أنّ الثقل الذي فيه حيّ أم ميّت. إنّه أسوأ حمل عرفته، فليس هو خفيفاً بثقله، ولا ثقيلاً بخفّته.

...

...

بعدها، كانت المبادرة منه. اتصل إليّ الشيخ ليلاً ليطلب منّي لقاءه في اليوم التالي بمركزه الإرشادي، وفي وقت الصباح. لم يشغل بالي السؤال عن سبب دعوته، بل ظلّت هواجسي مثارة بقول الشاعر الذي ذكره لي في أوّل لقاء.

في سنوات دراستي الأولى كنت مولعة بالشعر. حفظت الكثير من القصائد سواء في المقرّر الدراسي، أو من تلك الدواوين التي كان رقيب يعطيني إيّاها لأقراها. إذا وجدتم كلمات أو عبارات شعرية في بوحي هذا، فهي من تأثير قراءاتي الأولى، في الشعر والرواية. لقد حاولت أن أكتب حينها بعض هواجسي الشعرية في حصّة التعبير، إلاّ أن الأستاذة ظلت تزجرني ألاّ أحلّق بعيداً في خيالي؛ حتى إنّها قطّعت أوّل قصّة كتبتها بدون أن تقول لي لماذا.

نمت بصعوبة، بعد اتصاله تلك الليلة. تهيّجت كلّ أحاسيسي بذكر الجهاد. ليس الجهاد الذي عرفته وعايشته، وإنّما الجهاد الذي لم أعرفه إلاّ في الأفلام والأحاديث. تذكّرت قول لولا عن جهاد عبد الرقيب وغزوته لفالنتينا. «وأنا من سيجاهد في سبيلي، من سيغزوني، متى؟» سألتها، وأنا أستعيدها في الذاكرة وأبكي.

دخلتُ مركز إرشاد المهتدين، و لم أجد السكرتير في مكتبه. اتجهت إلى مكتب الشيخ مباشرة، بعد أن طرقت الباب ورحبّ بي.

«دوامنا في المركز بالمساء. أنا فضّلت أن أفتحه في هذا الوقت لألتقي بك في جوٍّ هادئ» قال، وأخرج من درج مكتبه علبة عصير

منجا ومدّها إليّ: «اشربيها، بالهناء، لا يوجد شيء آخر في المكتب أعزمك عليه».

احترت. كيف أزيل اللثمة عن وجهي وأشرب أمامه. ألا يخالف ذلك أصول الشريعة، حسب ما تعلّمنا في الجامعة، وهو أحد شيوخها؟

«شكراً، لا أرغب في شرب المنجا الآن». أردت أن أقول له بشكل غير مباشر أنني قد أشرب عصير المنجا، لكنّ هناك مانعاً شرعياً، لا يسمح لي أن أشربه في ذلك الوقت بالذات.

«لا يرفض العزومة إلاّ غير الكريم» قال وهو يتطلّع إلى استجابتي. مررت علبة المنجا من تحت الخمار. ظننتُ أنّه قصد أن أشرب على هذا النحو، دون أن أنزع اللثمة. لكنّه أوضح قبل أن أمضي بالشرب: «انزعي عنك حجاب وجهك، لا تخافي، ألستُ أستاذك وشيخك، ألم تصيري ثيّباً بعد الطلاق وقد... ... قد... .؟» وبدا مصطنعاً ضحكة ليضيف معها: «قد... قد تعجبينني وأتزوّجك على شرع الله وسنّة نبيّه».

شعرتُ كأنّ الزمان، كلّ الزمان وكلّ العمر، كلّ ما عشته، وما لم أعشه يدور في رأسي وأمامي ومن حولي كإعصار هبّ فجأة. لم أكن أتوقّع طلبه هذا، وأنا التي تزوّجت أبا عبد الله قبل أن يفتح عينيه ليرى وجهي. دوار وارتباك مفاجئ كانا كفيلين بأن يدفعاني لأستجيب لطلبه، بل إنّ هناك حافزاً محرّضاً، أحسست به داخلي بشدّة، هو ما دفعني إلى تجاوز الخجل وإظهار أكثر مما طلب، حيث خلعت إلى جانب اللثمة الخمار الذي يغطّي رأسي بأكمله ونثرت شعري دون مشابك أو غُرز.

«ما شاء الله... ما شاء الله... تبارك الله» ردّد مندهشاً لما رآه منّي.

نهض من مقعده خلف مكتبه، وجاء ليجلس أمامي، في القرب

من وجهي الذي بدا أنّه قد أثاره: «اسمعي. سأعطيك ما تريدين من مهر. وأنتِ مُطلّقة، ثيب. يمكن أن توافقي على زواجي ونتزوّج بدون الرجوع إلى وليّ أمرك للاستئذان منه».

«بهذه السرعة. اصبر قليلاً. سأفكّر وأجيبك» قلت لأهدئ من سرعته التي بدت مندفعة إلى أقصى حد.

في المنزل فكّرت كثيراً، واحترت. صلّيت صلاة الاستخارة، ووجدتني موافقة.

...

...

...

«مافيش وقت... هيّا وافقي. بكلمة واحدة منك تصبحين زوجتي، حسب الشريعة» قال حين رحت إليه في اليوم التالي.

وإذْ وافقته على ما أراد فإنّني صرت طائعة له منذ تلك اللحظة، بصفتي حُرمته، طبعاً.

مررنا لنتمّ العقد عند قاض يعرفه، بحضور شهود اتصل بهم ووجدناهم ينتظرون هناك. ثمّ أخذني إلى عمارة، قال إنّه يملكها، من ستة طوابق، وأمام إحدى الشقق، أخرج مفتاحاً، وناولني إيّاه: هيّا افتحي، هذه شقّتك.

بدت مجهّزة من كلّ الجوانب، بما في ذلك غرفة النوم، وسريرها المغري بممارسة اللعب بدون حدود.

أخرج عُلبة من ثلاّجة صغيرة، في ركن بجوار السرير. حين عدت من الحمّام، كان يلعق آخر ملعقة من معجون العُلبة الذي صرت متأكّدة

أنّه مخلوط من العسل والأعشاب المقوّية، مثل ذلك الذي كان يتناوله أبو عبد الله.

على غير ما توقّعت، هجم زوجي الجديد بسرعة إلى فوق جسدي. خلس ملابسه، وساعدني على خلس ما بقي من ملابسي. لم ينتظر، ومضى في تقبيل شفتيّ ومص لساني.

هيّجني، كما لم أتهيّج من قبل. أشعل رغبتي بقبلاته على رقبتي وفوق نهدي، وما بين فخذي. تلوّعت ولهثتُ. فرحتُ بما أنا فيه، بما لم أكن قد لامسته أو عرفته. قلتُ لنفسي إنَّ الله عوّضني.

في اللحظة التي بلغ فيها هيجاني حدّاً لا يطاق، وجدتني أكشف له الطريق ليعبر، أفتح له ليدخل ويمضي.

استجاب ولصق جذعه على الباب، ثُمّ ظلّ يوجّه ضرباته عليه. لكنّها بدت كضربات أوصال اللحم التي يمكن أن نشتريها من الجزّار وفيها أمعاء رخوة، لم تعرف الانتصاب في يوم ما.

شعرتُ بضيق شديد، بما يشبه الغضب أو القرف. لاحظت بشكل واضح بياض لحيته الكثّة على الرغم من لطخات الحنّاء المصبوغة به. لم أكن قد انتبهت إلى البياض من قبل ولا إلى ملامح كبر السن التي حجبتها ابتسامته المراوغة كالحنّاء. أردت أن أخبط رأسه بأيّ شيء صلب، و لم أجد سوى العلبة التي حاول بمعجونها أن يعالج عجزه.

حال دون حدوث ما أردت، إذْ تنبّه إلى غضبي، وحاول أن يرضيني، بالقول:

«شعرتُ أنّني قد تجاوزت الضعف، وأردت الزواج... أن أجرّب... والآن من حقّك أن تطلبي الطلاق... أنتِ حُرّة... أنتِ

حُرّة... أنتِ حُرّة... سألبّي أي طلب لك... يا ابنتي».

أيّ طلب أريده منه، غير الذي كنت ظننت أنّه صار في متناولي، وأنّه تحقّق فعلاً. بدا لي أنه يحاول أن يجلب ابتسامة إلى فمه ليظهرها مع الكلمات الخارجة منه، إلا أن ذلك لم يعد بالإمكان بعد أن بان عجزه أمامي وصارت حركة فمه لا تبثّ سوى التجهّم.

طلّقني بقوله أنتِ حُرّة ثلاث مرّات وبمخاطبته لي: يا ابنتي، ما يعني أنّني صرت مُحرّمة عليه كابنته. كانت أمّي تقول إنَّ حرّية المرأة مرهونة لدى وليّ أمرها الأب أو الأخ أو الزوج. وإنَّ الرجُل إذا قال لزوجته أنتِ حُرّة فيعني أنَّها طالق و لم تعد زوجته.

أردت أن أقول له: طلّقتك من نفسي، إلاّ أنّ قوله كان أسبق.

...

...

وما للمُسلمينَ سواكَ حصنٌ
إذا ما الضَرُّ مَسَّهُمُ وَنابا

ما حصل بيني وبين أستاذي الشيخ لم يتجاوز شكل التعامل مع اللُّبان. في ساعة واحدة، أو أقل من ذلك، تحوّلت إلى لبانة في متناوله. هرسها بين أسنانه، ثمّ ظلّ يلوكها بضع لحظات، ليتفل بها، قبل أن يتذوّق بلسانه حلاوتها، ويتلذذ بمضغها ومصّها.

مع هذا، كانت تلك اللحظات كافية لإشعالي، لتهييج هواجسي، وإثارة رغباتي التي ظننت أنّها دفنت منذ زمن.

حاولتُ أن أصلّي كثيراً لله وأدعوه، صليت صلاة الحاجة، رغم

القول إنّها بدعة. كنت بحاجة إلى رجل. بحاجة إلى أن أعيش. أن أطعم الحياة. أطعمها على الأقل.

صلّيتُ ودعوت الله، لكنّه لم يستجب لي. زدتُ تفجّراً كلّ يوم وليلة، بل كلّ ساعة ولحظة.

حاولتُ أن أرتّب حياتي من جديد. أسأل نفسي: ماذا أريد؟ وكيف أحصل على ما أريد؟

لكن الانفجار الداخلي لم يكن يسمح لي بأي ترتيب. ولو كان ترتيب رغباتي ذاتها. بدا لي أنّ لديّ رغبة واحدة، واحدة فقط، تحتاج إلى طريق لتعبر فيه، أكثر من حاجتها إلى ترتيب. تذكّرت أنديرا وحديثها عن تجاوز الأحاسيس والشهوات وكيف نعيش بدونهما في سلام داخلي. أيّ سلام داخلي مع نيران الرغبة، بل مع بركانها الذي لا يُخمد؟ أليس كلام أنديرا عبارة عن كلام مهدئ أو علاج مؤقت؟ فليس في الداخل سوى نيران حرب تهزم أي سلام، تحرق كلّ شيء بنيرانها، نيران رغبة أُشعلت ولا مجال لإطفاء حريقها أو احتراقها.

...

...

وما نيل المطالب... ...

تخرّجتُ من الجامعة، وأصبحت أعمل مدرّسة للتربية الإسلامية في مدرسة للبنات غير حكومية.

أغلب زميلاتي المدرّسات كنّ عوانس، وليس بيننا مدرّسون لأضع

أحدهم هدفاً لتحقيق رغباتي، بأيّ شكل كان.

هل تغيَّرت؟

نعم، تغيّرتُ. في الحقيقة، تعبت وأنا أحلم بأن أحصل على رجل. أكثر لحظات أيّامي ولياليّ، في الصحو والنوم، أقضيها بتخيّل رجل يضمّني، يشدّني بقوّة، يرهزني حتى أصيح من اللذة. صرتُ أردّد لنفسي أنَّ الله غفور رحيم وسيغفر لي خطيئتي الوحيدة التي سأرتكبها في عمري كلّه. إذا لم أتزوَّج بشريعة الله وسنّة رسوله، فلا مجال آخر سوى ارتكاب الخطيئة. لمرّة واحدة، فقط. مرّة واحدة.

كان أقرب رجل إلى بيتنا هو سهيل الذي بدا لي أنّه الوحيد، المهيّأ من جيراننا، للاستجابة لأيّ خطوة تَقَرُّب من قبلي نحوه. ألم يهدِني أغنية لأم كلثوم؟

لا يبعد بيته من منزلنا سوى ستة أمتار. كان قد انفرد بالسكن فيه مع زوجته بعد أن سافر والداه للعيش في القرية، وزواج أخته الوحيدة.

يبدو، وهو عضو في فرقة الموسيقى الوطنية، في الأربعين من عمره. تزوّج مرّتين، الأولى طلّقها بعد أن أنجبت ثلاثة أطفال، وصار عليه أن يذهب كل شهر إلى أمّهم ليدفع ما استطاع من مصاريفهم المدرسيّة. الثانية وضعت طفلها الوحيد عند أمّها، وسافرت إلى المغرب لتحضّر الدكتوراه في الرواية اليمنية الحديثة.

بعد بحث وجدت أرقام تلفون منزله، مكتوبة على جدار مطبخ منزلنا. وفرحتُ إذْ وجدت رقم موبايله الخاص، أيضاً.

كانت أمّي تتصل بالتلفون إلى زوجته، إذا احتاجت لشيء. ويبدو

أنّها دوّنت رقم موبايل سهيل للتواصل معها عبره، قبل أن يصبح لديهما خط تلفون في البيت.

رحتُ أمطره بالرسائل من موبايلي، الذي بقي معي أكثر من خمس سنوات. بدأت في مدحه، وصفته بالفنّان العظيم والكبير الذي يستحق كلّ تقدير واحترام. في كلّ رسالة، لا أنسى أن أؤكّد له: «هذه ليست مجاملة، بل هي الحقيقة».

لم أكن قد أفصحت له عن اسمي، وبدا أنّه غير مهتم بمعرفته، بل وغير مندفع إلى القيام بخطوة من شأنها أن تقرّب بيننا، كأن يدعوني إلى لقائه، أو يتصل بي ليسمع صوتي، ليتأكّد أنني أنثى، امرأة حقيقية، وليست وهماً. اكتفى بردود بخيلة، لا تتجاوز كلمتين: «أهلاً وسهلاً»، وأحياناً كلمة واحدة: «شكراً»، إلاّ إذا سألته جواباً يتطلّب التفصيل.

باستثناء دوامه اليومي على تناول القات، وسهراته الليلية الصاخبة التي يقيمها مع زملائه الموسيقيين بين وقت وآخر، كان يبدو عليه الانضباط الاجتماعي في كلّ سلوكه. مع هذا، اتفق أبي مع عبد الرقيب في وصفه بالزّنديق.

كتبتُ له مرّة: «ألا تشتاق أيّها الفنّان الرائع إلى امرأة تجلس بجانبك، ألا ترغب بأنثى؟ كيف تستطيع العيش بدون امرأة منذ أن سافرت زوجتك»؟

أجابني: «لديّ امرأة من عالم آخر غير مرئي، تزورني كلّما احتجت إليها».

. .

. .

قرّرت أن أصبح امرأة من خيال، أو أحاول أن أبدو كذلك، لأذهب إليه. تزيّنت وتعطّرت وتبخّرت. عملت كلّ ما يمكن أن يفتن النظر ويجذب الشم. استذكرت ما ظننته يهيّج الرغبة، وذهبت إليه.

حين فتح الباب، أزلت اللثمة من وجهي وفتحت الستارة الصنعانية التي تغطي ملابسي المُزيَّنة. قلتُ: أنا ليلة القَدر.

«أهلاً وسهلاً، خيرٌ من ألف امرأة».

ظننت أنّه يرحّب بي. ربّما اعتقد فعلاً أنني ليلة القدر التي تعلّمنا أنّها خيرٌ من ألف شهر، تنزل من السماء، في مثل تلك الليلة، في ليلة السابع والعشرين من شهر رمضان، كلّ سنة، فتحقق مطالب من يراها.

«ألن أدخل؟» سألته، وأنا ما زلت واقفة في الباب.

«لا يمكن، أنا وحيد ولا امرأة في البيت».

«ستندم» قلت له، وكأنني فعلاً ليلة القدر.

عدت متوحّشة، وحيدة إلى البيت، في ليلة رمضانية لا مثيل لصخبها في الشوارع والأسواق.

وما استعصى على قوم منال

... ...

لم يعرف أنني جارته، فلماذا لم يقبَلني كامرأة خيالية، كتلك التي تجيء

إليه من العالم الآخر غير المرئي، كما قال. ألم أقل له إنّني ليلة القدر؟

لم أعد قادرة على كبت الرغبة أو إخفائها، على الأقل. صارت تتداخل مع كلّ هواجسي وأحاديثي، و لم أعد أستطيع التحكم فيها. هذا ما تأكّدت منه، حين وجدتني مرّة أطلب من سائق باص الأجرة الذي كنتُ راكبة فيه أن يتوقّف جانباً لأنزل، فبدلاً من أن أقول له: «لو سمحت، وقّف على جنب» كما يقول كلّ الركّاب، قلت له: «لو سمحت نيكني» أمام دهشة الركّاب وارتباك السائق الذي بدا أنّه فهم ما قصدت فتوقّف لأنزل.

مكتبة الفكر الجديد

الوجه الثاني... الوجه الأوّل

...

...

سلوا قلبي غداة سلا وثابا
لعلّ على الجمال له عتابا

ويُسألُ في الحوادث ذو صواب
فهل ترك الجمالُ له صوابا

وكنت إذا سألتُ القلب يوماً
تولّى الدمع عن قلبي الجوابا

ولي بين الضلوع دمٌ ولحمٌ
هما الواهي الذي ثكل الشبابا

تَسَرَّبَ في الدُموعِ فَقُلتُ: وَلى
وصَفَّقَ في الضُلوعِ فَقُلتُ: ثابا

ظننتُ أنّني سمعت هذا المقطع من الأغنية بشكل جيّد، و لم أدرك خطئي إلاّ حين عدتُ إلى كثير من الكتب التي احتوت القصيدة. لقد أصبحت مهووسة بها. لم أجدها في ديوان الشوقيات وهو الكتاب الأساسي الحاوي لأشعار أحمد شوقي، ووجدتها في كتب عن أم كلثوم، كما وجدتها في كتابين قديمين فيهما مختارات من أشعار شوقي

ولكن بشكلين مختلفين، فحين قارنت بين الأبيات المنشورة وبين ما أسمعه بصوت أمّ كلثوم وموسيقى رياض السنباطي، اكتشفت، أنّ كلمة نهاية البيتين، الأول والخامس، هي **ثابا**. هكذا، لم أستطع من قبل، أن التقط بوضوح صوت أمّ كثوم وهو يقول: **ثابا**، التي تعني الثبات والتمركز كما أفادني المعجم، وظننتها تقول تابا، لكثرة تداول هذه الكلمة.

لكن، هل فعلاً، تنطقها أم كلثوم **ثابا**، أم صرت أظن ذلك بعد قراءتي لها على هذا الشكل في كتابين.

ألم يوردها كُتّاب سيرة أم كلثوم وجامعو كلمات أغانيها، على أنّها **تابا**؟

يا آه... كم يشدّني هذا البيت، وهي تعيده بصوتها:

تَسَرَّبَ في الدُموعِ فَقُلتُ: وَلى
وَصَفَّقَ في الضُلوعِ فَقُلتُ: ثابا

على الأرجح، صرت أندهش، أتولّه، أجنّ ربّما، حين تنطق كلمة **الضلوع**، في هذا البيت، بتلوّعات صوتية، بدت لي أنّها مفعمة بكلّ شيء، بكلّ ما يمكن تصوّره وما لا يمكن.

...

... ...

... ...

وصفّقَ في الضلوع فقلت ثابا

لم أجد كلمة **الضلوع** بين أسماء الله الحسنى، مع أنّها تبدو كذلك بصوت أمّ كلثوم.

بالنسبة لي صارت **الضلوع** كلّ الأسماء، بما في ذلك اسمي الذي لم أعد أتذكّره، منذ أن صرت مُختزلة بصفتي حُرمة، الصفة التي استبدلتني بها. ألم أكن حُرمة قبل أن أصير حُرمة؟ كيف تستبدلني هذه الصفة بها، وأنا أصلاً هي، حُرمة؟

... ...

إذا الإقدامُ كانَ لَهُمْ رِكابا

.

كان يمكنني أن أبحث عن هدف آخر، غير سهيل، لتحقيق رغباتي. لكنَّ الفكرة التي سيطرت عليّ حينها أشعرتني بأنَّ تقرُّبي إلى أيّ رجل آخر، أو التفكير به، مجرّد التفكير، يعني أنّني صرتُ منحرفة، صرتُ عاهرة، قحبة لا يهمّها مَنْ وأين وكيف تعاشر. كنتُ أخشى الفضيحة، فضيحة أن يُنظر إليّ باعتباري قحبة. فكّرتُ بأن أتخفّى باسم آخر، وأمضي مع أي رجُل يغازلني في الشارع ويدعوني إلى مرافقته، لكنّني

تذكّرت ما يقال عن مداهمات رجال الأمن لبعض البيوت بحجّة ممارسة الرذيلة فيها، بل وقيامهم، أحياناً، بالقبض على أي رجل وامرأة يجدونهما مختلِيين في سيّارة أو مطعم أو حديقة، ولا يدعونهما، حتّى ولو كانا زوجين، إلاّ بعد تحقيقات وتأكيدات.

الخاطبة الشهيرة في حارتنا التي تعمل على جلب أزواج للفتيات، لم أقصِّر، أيضاً، في زيارتها إلى أن شعرت بمقصدي فقالت إنَّ الرجال، سواء كانوا شباباً أو كباراً في السن، يشترطون أن تبحث لهم عن زوجات صغيرات ما بين الرابعة عشرة والسابعة عشرة.

هكذا كان التقرُّب إلى سهيل أكثر أماناً واحتمالاً، بالنسبة لي، مع هذا فإنَّ بعض وسائل التقرّب إليه بدت لي صعبة جدّاً ومستحيلة التحقّق، حتّى إنّني قلتُ لنفسي: أن أصبح قحبة وافتضح أمام العالم كلّه أهون عندي من أن أقوم بها. لكنّ قولي هذا كان مجرّد محاولة لإقناع نفسي بالتراجع عن القيام بما فكّرت به:

سأبدأ في حفر نفق، من أقرب غرفة يمكنها أن تصلني بمنزله، من تحت الأرض. سآتي بإزميل ومجرفة، وأبدأ الحفر. سأحدّد اتجاه الحفر بحيث لا يتجاوز عشرة أمتار، ممتدة من منزلنا إلى إحدى غُرف منزله؛ تحديداً إلى المطبخ الذي لم يعد يستخدمه منذ سافرت زوجته. سأجلب الأكياس لحفظ التراب، وأمضي في الحفر من عمق طوله ثلاثة أمتار.

سيكون عليّ أن أوسّع الحفرة لأستطيع الحركة والعبور من خلالها إلى حيث أردت.

قد أصاب بسعال حاد يوقفني عن مواصلة الحفر بضعة أيّام. لكنّني لن أتهاون عن العودة مجدّداً.

سيستغرق الحفر أربعة أشهر، وربّما أكثر، أو أقل. حينها، سأخرج من مطبخ منزل الفنّان، بعد أن أوجّه حفرة النفق إلى أعلى. لن أقوم بالحفر، حين أصبح قريبة من منزله سوى في فترة الصباح، أثناء ذهابه إلى العمل، حتى لا يسمع ضربات الأزميل والمجرفة.

سألبسُ زيّاً إضافياً لأقي زينتي من التراب، حين أقرّر الظهور إليه.

ثُمّ ماذا؟... ...

هل سيبدو هذه المرّة مرعوباً حين يراني؟

سيصرخ: من أنتِ؟

«أنا جنّية... جئت لأنام معك هذه الليلة» سأقول.

«من أنتِ؟ قولي الحقيقة... أنا لا أؤمن بالجن».

«آمنت أم لم تؤمن... أنا جنّية».

سيضحك، لكنّ ملامح تجلّد سرعان ما ستعود إلى وجهه، ليقول غاضباً: «هيّا... ارجعي من حيث جئتِ وبدون كلام فارغ... هيّا».

ولن يكون لديّ أيّ حيلة أمام موقفه المتصلّب إلاّ أن أعود، طبعاً، عبر الحفرة التي جئت منها.

اللامبالاة التي سيقابل فيها مفاجأتي النفقية ستبدو غريبة أكثر من تصرّفي نفسه الذي أفكّر في القيام به. هل يمكن أن أجد لامبالاته عند شخص آخر على هذا النحو، إلاّ إذا كان هناك سبب ما وراء ذلك؟ طبعاً، مع استبعاد القول إنّ السبب هو حبّه لزوجته المهاجرة، أو إنّ أخلاقه الدينية لا تسمح. إذْ إنّه، على الأرجح، بعيد عن الاثنين، الحبّ والدين.

.

.

وعَلَّمَنا بناءَ المَجد حَتّى
أَخَذنا إمرَةَ الأَرضِ اغتِصابا

هل كان فعلاً بعيداً عن الحب والدين؟

إذاً لماذا أرسل لي بأغنية أمّ كلثوم التي تجمع بينهما؟

مع الأيّام بدا لي سهيل كأنّه قدر، عليّ أنا تحقيقه، و لم يعد بإمكاني التفكير برجل آخر، إذْ سيكون ذلك بمثابة مغامرة لا أعرف عواقبها، فأنا لست لولا التي ماتت مع خبرتها.

فكّرت وفكّرت، ثمّ قرّرت أن أذهب إليه مجدداً لأقابله وجهاً لوجه. تزيّنت وتبخّرت وتعطّرت أكثر مما كنت عليه في المرّة السابقة.

ما إن فتح الباب حتّى اندفعت إليه لأضمّه.

ابتعد وهو يتفحّصني. بدا أنّه عرفني هذه المرّة.

«أنت متزوّجة».

« لم أعد متزوّجة. أنا مُطلّقة».

«هذا لا يَصْلُحْ».

«إلاّ... يَصْلُحْ».

رجوته، وركعت حاضنة فخذيه. أردت أن أقبّل راحتي قدميه، لكنّه ظل رافضاً، متمنّعاً، مع أنَّ عضوه بدا منتصباً، بوضوح، رافعاً الثوب الذي يغطّيه.

رحت أرجوه وأبكي. قلت له أخيراً: «لو ألمسه... أرجوك. لو ألمسه بَسْ... لا تحرمني من ذلك... أرجوك».

لاحظتُ أنّه استسلم ليديّ وهما تنزعان ثوبه وسرواله. لكنّه حين رآني أهمّ أكثر نحوه عاد يحاول أن يبتعد ومدّ أصابع يده اليمنى إلى

خدّه الأيسر، المنفوخ بالقات المخزّن له في فمه، وكأنه يفكر. تولولت وتلوّعت، وبكيت لاهثة، قبل أن يضعه مجدّداً بين أصابعي. أردتُ ضمّه، خطفه إلى حيث سبيله، لكنّه راح يفرّغ ما إن بدأ بملامسة بظري. أفرغ شحنته وماءه بسرعة قبل أن يصل، أو يسمح لغضبه أن يستثار كأنّه قد بلغ مراد من يرجوه، وصار عليه أن يطلب منه أن يغادر فوراً.

...

...

ولَو خُلِقَتْ قُلوبٌ من حَديد
لَما حَمَلَتْ كَما حَمَلَ العَذابا

ولا يُنبئكَ عَن خُلُقِ اللَيالي
كَمَن فَقَدَ الأَحِبَّةَ وَالصَحابا

قبل أن يحدث ما حدث، كُنت قد اكتشفت أنّني حامل. هكذا قالت لي الطبيبة.

لم يصل عضو سهيل سوى إلى فوق بظري، حيث فرّغ هناك، فمن أين سيجيء الجنين؟

ألا يكون من بقايا قطرات الأستاذ الشيخ؟ ولكن، كان ذلك من فترة. أمحكوم عليّ أن يأتي جنيني من ماء رخو، ماء الشيخ أو الفنّان؟

الطبيبة نفسها أكّدت أنني ما زلت عذراء، أيضاً. كانت قد ضحكت حين أخبرتها أنني لم أضاجع رجلاً في حياتي، وأن بإمكانها أن تفحصني.

لم أدر ماذا أعمل. بقيت مشتّته على الرغم من غبطة تنتابني حين أتخيّل أن جسماً صلباً سيعبر أخيراً من بين فخذي، سيندفع بقوّة محسوسة من داخلي إلى الخارج. بعد أن بقيت سنوات طويلة أنتظر أن أحسّ بهذه القوّة وهي تخترقني من الخارج.

...

...

وما نَيلُ المَطالب بالتَمَنّي
ولَكِن تُؤخَذُ الدُنيا غِلابا

قرّرتُ أن أمضي مع جنيني، بعيداً عن البيت وروائح ذكرياتها التي لم تعد تعنيني بشيء؛ لكنّني ما إن تجاوزت عتبة الباب، حتى حدث ما حدث، لقد حدث ما كنت أظنّ أنّه لن يحدث، أبداً.

رأيته مندفعاً نحوي، وكأنّه ماضٍ إلى غزوة جديدة.

لقد عاد مَنْ كنتُ قد ظننت أنّه مات. عاد أبو عبد الله و لم يعترف بطلاقي منه عبر المحكمة.

«أتطلّقينني من محكمة كافرة؟ هذا غير شرعي».

تمنّيت حينها أن أملك مُسدّساً أو خنجراً، على الأقل، لأصوّبه نحوه، وأؤكّد موته. ذكّرته بأنديرا، قلت له: أرسل إليها، إنّها زوجتك. قال إنّها أصبحت حُرّة لأنّ الله سخّرها فقط لخدمة المجاهدين.

لجأ إلى عبد الرقيب ليقنعني، لكنّه كان مشغولاً بفالنتينا وبالتجارة، وليس لديه متسع ليجاريه، ويفرض عليّ رغبات زميله السابق في الجهاد.

... ...

... ...

وَما استَعصى عَلى قَوم مَنالٌ
إِذا الإقدامُ كانَ لَهُمْ رِكابا

أغادر البيت... لا أعرف إلى أين. أبتعد منه، منّي حيث كنتُ، من ذكرياته وروائحها. أمضي إلى أيّ مكان... آكل من أيّ مزبلة... وفي أيّ مزبلة أنام... أنا في مزبلة... حُرمة في مزبلة... مزبلة في حُرمة... أمضي في الشارع... أمشي وأمشي... يتلّفتون حولي... أنا حُرَّة ... أنا حُرَّة... أنا حُرمة... أنا حُرمة حُرَّة... أنا حُرَّة حُرمة... أنا حُرمة نفسي... حُرمة حرّيتي... هو حُرمة... هو حُرمة وأنا أخرى... أنزع الخِمار... أنزع اللثمة والعباءة وأمشي... أرمي بالذهب من على يدي وفوق رقبتي... أفكّ أزرار قميصي... أسحب حمّالة نهدي إلى أسفل بطني... أرميها إلى كلب طيّب ليشمَّها... صدري مواجه للريح ونهداي... أخلسُ قميصي وسروالي... أمضي... أظلّ أمضي... أمضي بدوني ... أتخلّى عنّي... كنتُ حُرمة وصرت حُرمة... صرت حُرمة بلا معناها... حُرمة بلا معنى... كنتُ أخرى وصرت أنا... كنتُ أنا وصرتُ أخرى... كنتُ أخرى وصرتُ أخرى.

لا اسم لها. وكأن اسمها هو الآخر «حرمة».

عندما أهداها جارها سهيل أغنية «سلوا قلبي» لأم كلثوم، لم تسمعها لاعتقادها أن الغناء حرام. وحين سمعتها بعد مضي عدّة سنوات، اكتشفت أنها أغنية مديح للنبي محمد.

مع الأغنية، تسترجع طفولتها الحالمة والحرمان الذي عاشته: من المدرسة الدينية، إلى الكلّية الإسلامية، إلى التناقضات في البيت حيث تمارس أختها لولا حياتها الجنسية الصاخبة في الوقت الذي تتظاهر فيه بالتديّن، وحيث يحرّضها أخوها رقيب الماركسي على التحرّر، لكنّه ما إن يتزوّج حتى يتحوّل إلى شخص غيور ويتوجّه نحو الجماعات الإسلامية والتطرّف. تُحاصر رغباتها قبل أن تبدأ بموانع تستهدف تهذيب مسارها. وإذ يتحقّق ذلك، فإنّها تتبع شغفها بالجهاد، فتمضي من صنعاء إلى الرياض فالقاهرة والسودان وصولاً إلى أفغانستان، ومنها إلى سجن في إيران، لكنّها تجد نفسها رغم تطلّعها للمشاركة مُجرّد حُرمة لا أكثر.

رواية عارية عن أجساد مُحجّبة تتلوّع في عالم صاخب بالشهوة ومحاصر بالحرمان.

علي المقري روائي وكاتب يمني. يعمل في الصحافة الثقافية منذ ١٩٨٥. صدر له في الرواية عن دار الساقي «طعم أسود... رائحة سوداء» (القائمة الطويلة لجائزة بوكر العربية ٢٠٠٩)، و«اليهودي الحالي» (القائمة الطويلة لجائزة بوكر العربية ٢٠١١).

مكتبة الفكر الجديد

دار الساقي
DAR AL SAQI

ISBN 978-1-85516-854-1
9 781855 168541 >